

تأليف : باولو كويليو ❊ ترجمة : بهاء طاهر

القسم الأول

كان اسمه سانتياجو . وصل مع غياب الشمس يسوق قطيع أغنامه إلى كنيسة قديمة مهجورة . كان سقفها قد انهار منذ زمن طويل ، ونمت شجرة جميز ضخمة في مكان الهيكل .

قرر أن يقضي الليلة في هذا المكان . أدخل كل غنمه من الباب المكسور ونصب عدة ألواح من الخشب حتى يمنعها من الهرب أثناء الليل ، لم تكن هناك ذئاب في المنطقة ، ولكن شاة فرت في إحدى المرات وكان عليه أن يقضي اليوم التالي بأكمله بحثاً عن تلك الشاة الضالة .

فرد شاله على الأرض ونام فوقه ، مستخدماً الكتاب الذي فرغ من قراءته وسادة لرأسه . وفكر قبل أن يستغرق في النوم في أن عليه الآن أن يقرأ كتباً أطول ، سيقضي بذلك مزيداً من الوقت في قراءتها ، وستصبح وسائد أكثر راحة أثناء الليل .

كانت العتمة لاتزال سائدة عندما استيقظ ، تطلع إلى أعلى ورأى من خلال السقف نصف المحطم نجوماً تتلألأ . وفكر لنفسه «كنت أود أن أنام فترة أطول» .. كان قد عاوده نفس الحلم الذي رآه في الأسبوع السابق ، ومرة أخرى استيقظ قبل نهاية الحلم .

نهض وشرب جرعة من النبيذ .. وبعد ذلك هش بعصاه ليوقظ أغنامه التي كانت تغط في النوم . كان قد لاحظ أن أغلبية الشياه تفيق من نومها

فور أن يستيقظ هو ، كما لو أن قوة خفية كانت تربط حياته بحياة أغنامه ، التي ظلت منذ عامين تجوب معه المناطق سعيا وراء الماء والكلأ . قال لنفسه بصوت خافت : «لقد ألفتني إلى درجة أنها أصبحت تعرف مواعيدى . ثم فكر بعد لحظة من التأمل أن الأمر يمكن أن يكون أيضا عكس ذلك ، وأنه ربما يكون هو الذى ألف مواعيد الأغنام .

ومع ذلك فقد كانت هناك شياه تتأخر قليلاً فى الصحو . أيقظها بعصاه واحدة بعد الأخرى . مناديا كلا باسمها . لم يساوره الشك أبدا فى أن الشياه يمكنها أن تفهم ما يقول لها . ومن هنا أحيانا ما كان يقرأ لها بعض المقاطع التى استوقفته فى الكتب ، أو يحدثها عن وحشة حياة راعى الغنم فى الريف أو عن مباهجها ، أو يعلق على أحدث ما رأى من الطرف فى المدن التى اعتاد أن يمر بها .

ولكن منذ يومين لم يعد عنده سوى موضوع واحد للحديث . هو تلك الفتاة ساكنة المدينة التى سيصلها بعد أربعة أيام على الأكثر . كانت ابنة أحد التجار ، ولم يكن قد ذهب إلى تلك المدينة غير مرة واحدة ، فى العام الفائت .

كان التاجر يملك محلا للمنسوجات ، ويحب أن يرى جز صوف الشياه بعينيه ، ليتجنب أى غش فى الصفقة . دله واحد من أصدقائه على المحل، فساق الراعى إليه قطيعه .

* * *

قال للتاجر «أريد أن أبيع بعضا من الصوف» .

كان المحل مزدحما ، وطلب التاجر من الراعى أن ينتظر إلى أن يحل المساء . وعليه فقد خرج الراعى وجلس على الرصيف أمام المحل ثم سحب كتابا من الجراب الذى يحمله .

قال صوت أنثوى إلى جواره «لم أكن أعرف أن الرعاة يستطيعون قراءة الكتب» .

كانت فتاة تتجسد فيها السمات الأندلسية ، شعرها طويل وعيناها تذكران على نحو غامض بالفاتحين المغاربة القدامى .

رد الراعى الشاب «ولكن الشياه تعلم أشياء أكثر مما تضمه الكتب» .

ظلا يتبادلان الحديث أكثر من ساعتين . قالت له إنها ابنة التاجر ، وتحدثت عن حياة القرية التى يشبه كل يوم فيها أمسه . وحكى لها الراعى عن ريف الأندلس . وعن أحدث ما رأى من الطرف فى المدن التى مر بها . وكان سعيداً لأنه لم يعد مرغما على أن يحدث أغنامه طول الوقت .

سألته الفتاة : «كيف تعلمت القراءة ؟

- مثل الجميع . فى المدرسة .

- ولكن مادمت تعرف القراءة ، فلم أنت راعى غنم لا أكثر ؟

تهرب الشاب من الإجابة عن هذا السؤال . كان على أتم الثقة بأن الفتاة لن تفهم . استمر يحكى قصصا عن رحلاته ، وظلت العينان المغربيتان الصغيرتان تتسعان إلى أبعد مدى أو تنغلقان تحت تأثير الانبهار والدهشة . ومع مرور الوقت كان الشاب يدعو فى سره ألا ينتهى هذا اليوم قط ، وأن يظل والد الفتاة مشغولاً عنهما لفترة طويلة ، وأن يطلب منه الانتظار ثلاثة أيام . أدرك أنه يشعر بشىء لم يمر به أبداً من قبل ، ألا وهو الرغبة فى أن

يمكث دائما فى مدينة واحدة . لن تتشابه الأيام قط مع الفتاة ذات الشعر الأسود .

ولكن التاجر وصل أخيرا ، وطلب منه أن يجز صوف أربع شياه ، ثم دفع ما عليه ودعاه أن يعود مرة أخرى فى السنة التالية .

* * *

لم تتبق سوى أربعة أيام للوصول إلى ذلك المكان نفسه .

كان انفعاله شديدا ولكن الشك اجتاحه فى الوقت نفسه : ربما تكون الفتاة قد نسيته . كثير من الرعاة يمرون من هنا لبيع الصوف .

قال مخاطبا شياهه : «لا يهم . أنا أيضا أعرف فتيات أخريات فى مدن أخرى» .

ولكنه كان يعرف فى قرارة نفسه أنه يستحيل أن يظهر عدم الاكتراث بالأمر ، وأن الرعاة ، شأن البحارة أو السماسرة الجائلين ، يعرفون دائماً مدينة تعيش فيها من تستطيع أن تنسيهم متعة السياحة فى العالم دون أى قيد على حريتهم .

* * *

عندما بدأت أولى تباشير الفجر . شرع الراعى يسوق أغنامه صوب مشرق الشمس . وفكر «إنها لا تحتاج إلى أن تقرر شيئاً ، وربما كان هذا هو السبب فى أنها تلازمنى» . الحاجة الوحيدة التى تشعر بها الأغنام هى حاجتها إلى الماء والغذاء . ولما كان راعيها يعرف أفضل المراعى فى الأندلس ، فستظل وفية له على الدوام . حتى ولو تشابهت أيامها وتباطأت الساعات وهى تتثاقل منذ شروق الشمس إلى مغربها ، حتى ولو لم تقرأ أى كتاب خلال عمرها القصير وجهلت لغة الناس الذين يحكون ما جرى فى القرى . كانت قانعة بالماء والغذاء ، وكانا فى الواقع كافيين تماما .. وفى مقابل ذلك كانت تقدم بسخاء أصوافها ، ورفقتها ، ومن حين إلى آخر لحومها .

قال لنفسه : «لو أننى تحولت خلال لحظة إلى وحش كاسر وشرعت فى قتلها واحدة بعد الأخرى فلن تبدأ فى الفهم إلا عندما يوشك القطيع كله على الفناء ، وذلك لأنها تثق فى ولأنها كفت عن الاعتماد على غرائزها وما هذا إلا لأنى أنا الذى أقودها إلى المرعى» .

وبدأ الشاب يدهش للأفكار التى تنتابه ، واكتشف أنها غريبة ربما كانت الكنيسة التى تنمو فى داخلها شجرة الجميز مسكونة بالأشباح . أيكون هذا هو السبب فى أنه قد رأى ذلك الحلم نفسه مرة أخرى ، وفى أنه يشعر الآن بنوع من الغضب على غنمه . التى دائماً ما ربطته بها الصداقة ؟ شرب قليلا من النبيذ الذى تبقى له من عشاء البارحة وحبك المعطف حول جسده . كان يعرف أنه فى خلال بضع ساعات ، عندما تحمى الشمس ، ستشتد حرارة الجو بحيث لن يسعه أن يقود قطيعه عبر الخلاء. ففى مثل ذلك الوقت فى الصيف تنام أسبانيا بأسرها. تستمر وقدة الحر حتى حلول الليل ، وعليه طول ذلك الوقت أن يحمل معه معطفه . ومع ذلك . فإنه عندما كان

يشعر بالرغبة فى أن يشتكى من هذا العبء ، كان يتذكر ، أنه بفضل ذلك العبء ذاته ، لم يكن يشعر ببرودة الفجر .

وفكر : «يجب أن نكون جاهزين دائما لمواجهة تقلبات الجو ، وتقبل بامتنان معطفه الثقيل .

هناك إذن مبرر لوجوده ، شأنه شأن الشاب نفسه فبعد عامين قضاهما وهو يجوب سهول الأندلس ، أصبح يعرف عن ظهر قلب كل مدن المنطقة ، وذلك هو ما أعطى لحياته المعنى : الترحال .

كان ينتوى أن يفسر للفتاة فى هذه المرة لماذا يستطيع راع بسيط أن يقرأ . لقد ظل حتى سن السادسة عشرة يتردد على المدرسة الدينية . كان أبواه يريدان أن يجعلا منه قساً ، لأن ذلك ما تباهى به أسرة ريفية متواضعة ظلت تكدح لمجرد الحصول على الغذاء والماء ، مثل أغنامه .

درس اللاتينية والأسبانية واللاهوت . ولكنه كان يحلم منذ صباه الباكر بأن يعرف العالم ، كان ذلك فى نظره شيئا أهم بكثير من معرفة الرب أو خطايا البشر . وذات مساء حين ذهب ليزور أسرته تسلح بالشجاعة وقال لوالده : إنه لا يريد أن يصبح كاهنا .

هو يريد أن يرحل .

«يا ولدى ، لقد أتى رجال من كل أنحاء العالم ومروا بقريتنا . جاءوا هنا ليبحثوا عن أشياء جديدة ولكنهم ظلوا دائما كما كانوا ، يذهبون حتى التل ليزوروا القصر ، ويكتشفوا أن الماضى أفضل من الحاضر. بعضهم شقر وبعضهم سمر ، ولكن الناس فى قريتنا يرونهم متشابهين .

– أما أنا فلم أر القصور فى البلاد التى يأتى منها هؤلاء الرجال .

هكذا رد الشاب ، فواصل الأب .

- هؤلاء الرجال عندما يرون حقولنا ونساءنا يقولون إنهم يتمنون البقاء هنا إلى الأبد .

- أريد أن أرى نساءهم والبلاد التى جاءوا منها ، لأنهم لا يبقون بيننا أبدا .

- ولكن هؤلاء الرجال جيوبهم عامرة بالمال . أما عندنا فالرعاة وحدهم هم الذين يسعهم السياحة فى البلاد .

- إذن فلأصبح راعيا» .

لم يضف الأب شيئا إلى ما قاله ، وفى اليوم التالى أعطى إبنه صندوقا يضم ثلاث عملات ذهبية أسبانية قديمة .

قال لولده : «هى عملات وجدتها ذات يوم فى أحد الحقول . فى رأيى أنها كانت يجب أن تذهب للكنيسة يوم أن تنصب كاهناً . اشتر بها قطيعا واضرب فى الأرض إلى أن يأتى اليوم الذى تعرف فيه أن قصرنا هو أحق القصور بعنايتك ، وأن نساءنا هن أجمل النساء» .

ثم بارك ولده ورأى الصبى فى عينى أبيه أيضا تلك الرغبة فى أن يضرب فى الأرض . رغبة كانت حية دائما على الرغم من عشرات السنين التى حاول خلالها أن يقمعها بالبقاء فى المكان نفسه ، لكى ينام فيه كل ليلة ، فيه يشرب وفيه يأكل .

* * *

اصطبغ الأفق بالحمرة ثم طلعت الشمس . تذكر الشاب حواره مع أبيه وشعر بالسعادة ، فقد عرف حتى الآن كثيرا من القصور وكثيرا من النساء (وإن لم تبار إحداهن تلك التى ينتظر مرآها بعد يومين) . وهو يمتلك الآن معطفا ، وكتاباً يمكن أن يستبدل به غيره ، وقطيعا من الخراف . ولكن أهم شيء هو أنه كان يحقق فى كل يوم حلم حياته الكبير : الترحال . وفكر أنه يستطيع عندما يمل ريف الأندلس أن يبيع غنمه وأن يصبح بحاراً ، وعندما يشبع من البحر سيكون قد عرف كثيراً من المدن وكثيراً من النساء وكثيرا من لحظات السعادة .

وتساءل وهو يرقب مطلع الشمس «كيف يمكن للإنسان أن يذهب إلى مدرسة دينية لكى يبحث عن الله؟» .

كان يحاول أن يبحث عن وجهة جديدة كلما تسنى له ذلك . ولم يكن قد ذهب قط إلى هذه الكنيسة مع أنه اجتاز تلك البقعة مراراً . العالم شاسع لا نهاية لسعته ، ولو أنه ترك غنمه تقوده فربما اكتشف المزيد من الأشياء العجيبة فى وقت قصير .

«المشكلة هى أنها لن تدرك أنها تمر بدروب جديدة كل يوم ، فهى لا تلاحظ أن المراعى قد تغيرت ، وأن الفصول تتغير ، لأنه لا شيء يشغلها غير الغذاء والماء» .

ثم فكر الراعى «ربما يكون هذا هو حال كل المخلوقات ، حتى أنا - الذى لم تعد أية امرأة أخرى تشغل فكرى منذ أن قابلت ابنة التاجر» .

تطلع إلى السماء وقدر أنه بناء على حساباته فسيكون فى «تاريفا» قبل موعد الغداء . وهناك سيمكنه أن يستبدل بكتابه كتابا آخر أكبر حجما ، وأن يعبيء زجاجة نبيده ويحلق ذقنه ويقص شعره ؛ يجب أن يكون مهيئاً تماماً لمقابلة الفتاة ، ولم يشأ أن يتخيل مجرد التخيل فكوة أن

راعيا آخر يملك المزيد من الغنم ربما يكون قد سبقه إلى الوصول لكى يطلب يدها .

وفكر وهو يرفع عينيه مرة أخرى إلى السماء ويحث خطاه «إن بهجة الحياة ليست شيئا آخر غير احتمال تحقيق الحلم» . وتذكر لحظتها أن هناك عجوزاً فى «تاريفا» تعرف تفسير الأحلام ، وأنه قد واتاه فى تلك الليلة الحلم نفسه الذى رآه مرة من قبل .

* * *

قادت العجوز الشاب إلى غرفة مستقلة فى داخل البيت يفصلها عن الصالة ستار من البلاستيك المتعدد الألوان .

وكانت فى الحجرة منضدة . وصورة للقلب المقدس ، ومقعدان .

جلست العجوز وطلبت إليه أن يجلس قبالتها ، ثم أخذت يدى الشاب بين يديها وبدأت تتلو صلاة خافتة .

كانت صلاتها تشبه صلاة الغجر الذين قابل منهم الكثير فى تجواله ، هؤلاء أيضاً قوم رحالة لكنهم لا يشتغلون بالرعى . وكانت الشائعة الرائجة أن الغجرى شخص يقضى حياته فى خداع البشر ، وقيل أيضاً إن بينهم وبين الشيطان عهدا ، وإنهم يختطفون الأطفال ليتخذوهم عبيداً لهم داخل مخيماتهم التى يحوطها الغموض . وعندما كان الراعى الشاب طفلا عاش رعبا دائماً من فكرة أن يختطفه الغجر ، وقد عاوده ذلك الخوف القديم بينما كانت العجوز تمسك بيديه .

وفكر محاولاً أن يطمئن نفسه «ولكن هنا صورة للقلب المقدس» . لم يرد أن ترتجف يده فتشعر العجوز بخوفه ، وراح يرتل فى سره «أبانا الذى» .

قالت العجوز دون أن تفارق عيناها يدى الشاب : «عجيب ..» ثم لزمت الصمت من جديد .

ازداد اضطراب أعصابه شيئا فشيئاً وبدأت يداه ترتجفان بالرغم منه ولاحظت العجوز ذلك فسحبت يديه بسرعة .

قال «لم أت إلى هنا لقراءة الكف» وانتابه الندم ساعتها لدخوله ذلك البيت وفكر أنه يحسن أن يدفع للمرأة أجرها وأن ينصرف دون أن يعرف شيئاً ، فلاشك أنه قد أولى اهتماماً أكثر من اللازم لحلمه المتكرر .

لحظتها قالت العجوز : «جئت تسألني عن الأحلام والأحلام لغة الرب ، وعندما يتكلم الرب بلغة الأرض فإني استطيع أن أترجمها ، أما عندما يتكلم بلغة روحك فليس سواك من يستطيع أن يفهم . وعلى أى الأحوال فسيتعين أن تدفع أجرى» .

قال الشاب لنفسه «ها هى ذى حيلة أخرى» . ولكنه قرر مع ذلك أن يقبل المجازفة ، فالراعى معرض دائماً لخطر الذئاب أو الجفاف وهذا هو ما يجعل الرعى حرفة مثيرة .

قال : «حلمت حلماً واحداً مرتين على التوالى . كنت مع قطيعى فى أحد المراعى . فإذا بطفل يظهر ويلعب مع الشياه . وأنا لا أحب كثيرا أن يلهو أحد مع شياهى فهى تخاف ممن لا تعرف ، ولكن الأطفال يأتون دائماً ليلعبوا معها دون أن تخشى منهم شيئاً ، ولا أعرف السبب فى ذلك ، لا أعرف كيف يتسنى للحيوانات أن تعرف أعمار البشر» .

– ارجع إلى حلمك . عندى قدر فوق النار ، ثم إنك لا تملك الكثير من المال ولن أضيع معك وقتى كله .

واصل الشاب محرجا بعض الشىء :

– «ظل الطفل يلهو مع الشياه فترة ثم فجأة أخذ بيدى واقتادنى حتى أهرام مصر» .

سكت لحظة ليرى ما إذا كانت العجوز تعرف ما هى أهرام مصر ، ولكنها ظلت على صمتها .

«ثم إنه هناك أمام أهرام مصر (ونطق الكلمتين الأخيرتين بوضوح تام ليتسنى للعجوز أن تفهم) ، قال لى الصبى «لو جئت حتى هنا فستجد كنزا مخبوءاً وفى اللحظة التى كان يوشك فيها على أن يدلنى على موضع الكنز صحوت فى كلتا المرتين».

لم تنبس العجوز بكلمة لبضع لحظات ، ثم عادت تمسك بيدى الشاب وتتفحصهما بعناية قبل أن تقول :

– لن أجعلك الآن تدفع شيئاً ، ولكنى أريد عشر الكنز إذا ما وجدته .

أخذ الشاب يضحك ضحكة راضية . إذن فسوف يحتفظ بما لديه من مال قليل بفضل حلم عن كنوز مخبوءة ! هذه العجوز لابد أن تكون غجرية حقا . فالغجر أغبياء.

سألها الشاب : إذن فكيف تفسرين هذا الحلم ؟

– يجب أن تقسم أولا . أقسم إنك ستعطينى عشر كنزك مقابل ما سأقوله لك .»

أقسم الشاب ، وطالبته العجوز بأن يكرر القسم مثبتاً عينيه على صورة القلب المقدس.

عندئذ قالت له «هذا حلم بلغة الأرض وأستطيع أن أفسره . ولكن تفسيره صعب جداً ، ولهذا فأظن أننى أستحق تماماً نصيبى مما ستعثر عليه.

«وإليك تفسيره : يجب أن تذهب حتى أهرام مصر . أنا لم أسمع عنها من قبل قط ، ولكن إن كان من دلك عليها طفل فلابد أن لها وجوداً فى الحقيقة . وهناك ستجد كنزا يجعلك ثريا .

شعر الشاب أول الأمر بالدهشة ثم أعقبها الغيظ . لم تكن هناك حاجة إلى أن يأتى لمقابلة هذه المرأة ليستمع إلى هذا النزر اليسير . ولكنه تذكر فى نهاية المطاف أنه لن يدفع شيئاً .

قال : لو كان هذا هو هذا الأمر فأنا لم أكن بحاجة إلى أن أضيع وقتى...

– أرأيت ؟ قلت لك منذ البداية إن حلمك يصعب تفسيره ، فالأشياء السهلة هى أغرب الأشياء ، والحكماء وحدهم هم الذين يسعهم إدراكها . وبما أنى لست منهم ، فلابد لى أن أعرف فنونا أخرى : كأن أقرأ الكف على سبيل المثال.

– وماذا أفعل لكى أصل إلى مصر ؟

– أنا لا أعمل إلا بتفسير الأحلام ، وليس فى مقدورى أن أحولها إلى حقائق ، وهذا هو السبب فى أنى أعيش على ما تعطينى إياه بناتى.

– وإذا لم أصل إلى مصر ؟

– إذن فلن أحصل على أجرى ، ولن تكون هذه هى المرة الأولى ».

ولم تضف العجوز شيئاً . طلبت إلى الشاب أن ينصرف لأنه أخذ الكثير من وقتها.

* * *

انصرف الراعى وهو يشعر بالإحباط وقد قرر ألا يصدق الأحلام بعد ذلك أبـداً . تذكر أن عليه أن يفعل كثيرا من الأشياء : ذهب ليبحث عما يأكله ، وبادل بكتابه كتابا آخر ، أكبر حجما ، وجلس على دكة خشبية فى الميدان لكى يتذوق بحريته النبيذ الجديد الذى اشتراه . كان يوما حارا ، واستطاع النبيذ بأعجوبة لا تفسير لها شأن كثير من الأعاجيب الموجودة فى الحياة أن يذهب عنه الحر قليلا . كانت ماشيته فى مدخل المدينة فى حظيرة صديق تعرف عليه أخيراً . كان قد عرف كثيرين فى هذه النواحى - وهذا هو سبب حبه للترحال ، حيث ينجح الإنسان دائماً فى عقد صداقات جديدة ، دون أن يتحتم عليه البقاء مع هؤلاء الأصدقاء على مر الأيام.

فعندما يرى المرء الوجوه نفسها كما كانت الحال فى المدرسة الدينية يعتبرها جزءاً من حياته . وحين تصبح جزءاً من حياتنا ، فهى تنتهى إلى الرغبة فى تغيير حياتنا. وإذا لم نصبح على نحو ما تشتهى أن ترانا فإنها تستاء منا ، لأن الناس جميعها يعتقدون أنهم يعرفون بالضبط كيف ينبغى أن نعيش .

ولكن أحداً لا يعرف قط كيف ينبغى أن يعيش هو حياته . مثلهم على نحو مامثل المرأة التى تفسر الأحلام ولكنها لا تعرف كيف تتحقق.

قرر أن أن ينتظر حتى تميل الشمس قليلا قبل أن يرجع إلى الريف مع غنمه ، ثم بعد ثلاثة أيام سيرى ابنة التاجر من جديد .

بدأ يقرأ الكتاب الذى حصل عليه من خورى تاريفا . كان مجلداً سميكاً ووجد منذ الصفحة الأولى مشهد دفن . ثم إن أسماء الشخصيات كانت

معقدة جداً ، وقرر أنه إذا ما قدر له أن يؤلف كتاباً فسيقدم الشخصيات واحدة بعد الأخرى ، لكى يجنب القراء حفظ أسمائها دفعة واحدة.

وعندما بدأ يركز قليلاً فى قراءته (وكانت مسلية حقا لأن مشهد الدفن كان يجرى أثناء هطول الثلج ، مما أعطاه إحساساً بالانتعاش وهو فى قيظ الشمس الملتهبة) ، جاء عجوز جلس إلى جواره وشرع فى الحديث.

سأله العجوز مشيرا إلى المارة فى الميدان:

– ماذا يفعل هؤلاء الناس ؟

– يعملون .

رد الراعى بجفاء وتظاهر بأنه مستغرق فى القراءة ، أما فى الحقيقة فقد كان يحلم بأنه سيجز صوف شياهه بعد ثلاثة أيام أمام ابنة التاجر وسيتاح لها أن ترى أيضاً أنه يستطيع أن يفعل أشياء تثير الإعجاب . كان يتخيل هذا المشهد عشرات المرات ، ودائما ما كان يرى الفتاة مبهورة عندما يشرح لها أنه ينبغى جز صوف الغنم من المؤخرة إلى المقدمة . حاول أيضاً أن يسترجع بعض القصص الجيدة لكى يحكيها لها وهو يجز الصوف . كانت معظمها قصصاً قرأها فى الكتب ، ولكنه سيقصها كما لو كان قد عاشها بنفسه . وهى لن تعرف الفرق قط مادامت لا تعرف قراءة الكتب .

ولكن العجوز كان لحوحاً . قال إنه جائع وظمآن وطلب جرعة من النبيذ . قدم له الفتى زجاجته عسى أن يتركه الآخر وشأنه.

ولكن العجوز كان مصمماً على أن يثرثر . سأل الراعى عن الكتاب الذى يقرؤه ، وفكر هذا أن يتصرف بفظاظة وأن يغير مقعده ، غير أن أباه قد

علمه أن يحترم كبار السن . ومن ثم فقد قدم الكتاب للعجوز لسببين . أولهما ، أنه كان من المتعذر عليه تماما أن ينطق العنوان ، وثانيهما ، أنه إذا كان العجوز يجهل القراءة فسيكون عليه هو أن يغير المقعد لكى يتجنب الشعور بالمهانة.

تفحص العجوز الكتاب من جميع جوانبه كما لو كان أعجوبة وهو يقول «هه ! .. هذا كتاب مهم ولكنه ممل للغاية ».

أصابت الشاب دهشة حقيقية ، إذن فهذا العجوز يعرف القراءة هو أيضاً ، وقد سبقت له قراءة هذا الكتاب . وإذا ما كان بالفعل عملا مملاً كما يقول فمازال هناك وقت لأن يستبدل به كتابا آخر .

واصل العجوز حديثه :

– هو كتاب يتكلم عن الأشياء نفسها التى تكاد تتكلم عنها كل الكتب الأخرى . أى عن عجز البشر عن أن يختاروا مصائرهم بأنفسهم ، وفى النهاية يحاول أن يقنعك بأكبر كذبة فى العالم .

سأله الشاب مدهوشاً: وما هى إذن أكبر كذبة فى العالم ؟

– إليك هى : أننا فى لحظة معينة من عمرنا نفقد السيطرة على حياتنا ومن ثم يتحكم فيها القدر . تلك هى أكبر كذبة فى العالم .

– بالنسبة لى لم تجر الأمور هكذا . أريد لى أن أكون قسا ، وقررت أنا أن أصبح راعيا.

– هذا أفضل . لأنك تحب الترحال.

قال سانتياجو لنفسه «لقد قرأ أفكارى».

وفى أثناء ذلك راح العجوز يتصفح الكتاب الضخم ، دون أن تبدر منه

أى نية على إعادته ، ولاحظ الراعى أنه يرتدى ثيابا عجيبة ! كانت تبدو عليه هيئة العربى ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً فى المنطقة لأن تاريفا على مبعدة بضع ساعات من أفريقيا ، ولم يكن على المرأ إلا أن يعبر المضيق فى مركب وكثيراً جداً ما ظهر فى المدينة أشخاص من العرب جاءوا لشراء حاجياتهم ورآهم وهم يصلون بطريقة خاصة جداً عدة مرات فى اليوم.

سأله : من أين أنت ؟

– من أماكن كثيرة .

– لا يمكن لإنسان أن يكون من أماكن كثيرة . أنا راع ويمكننى أن أكون فى أماكن كثيرة . ولكن أصلى من مكان واحد ، من بلدة قريبة من قصر قديم جداً ، فهناك ولدت.

– إذن فلنقل إنى ولدت فى سالم.

ولم يكن الراعى يعرف أين توجد سالم هذه ، ولكنه لم يرد أن يطرح أسئلة لكى لا يفضحه جهله . ظل يرقب الميدان هنيهة وكان الناس يروحون ويجيئون ويبدو عليهم أنهم مشغولون تماما.

وأخيراً وجه سؤاله بحثا عن أى علامة دالة :

– وكيف الحال فى سالم ؟

– كما هو ، مثلما كان دائما .

ولم تكن تلك علامة بحال ، ولكنه كان يعرف على الأقل أن «سالم» ليست فى الأندلس ، وإلا لعرف هذه المدينة.

– وماذا تفعل أنت فى سالم ؟

لأول مرة أطلق العجوز ضحكة مجلجلة وهو يقول :

– ما الذى أفعله فى سالم ؟ .. ولكنى ملك سالم ! .. ياله من سؤال ! ».

كثيرا ما يقول الناس أشياء بلهاء . وفى بعض الأحيان يحسن أن يعيش المرء مع الشياه الخرساء وأن يقنع بالبحث عن الغذاء والماء ، أو مع الكتب التى تحكى قصصا خرافية عندما يرغب المرء فى الاستماع إليها . أما عندما يتكلم مع الناس فهم يقولون أشياء معينة تجعلك لا تدرى كيف تواصل الحوار .

قال العجوز : إسمى ميلشيسيديك . كم لديك من الغنم ؟

– ما يكفى .

هذا العجوز يود أن يعرف عن حياته أكثر مما ينبغى.

– إذن فلدينا مشكلة . أنا لا أستطيع أن أساعدك مادمت تعتقد أن لديك ما يكفى من الغنم.

بدأ الفتى يشعر بنوع من الحنق ، فهو لم يطلب أى مساعدة ، بل إن العجوز هو الذى طلب منه نبيذاً ، وهو الذى أراد أن يثرثر وأبدى اهتماما بكتابه . قال :

– أعطنى هذا الكتاب ، يجب أن أذهب لأخذ غنمى وأواصل طريقى.

– أعطنى واحداً من كل عشرة وسأعلمك ما ينبغى أن تفعله لكى تصل إلى الكنز المخبوء.

عندها تذكر الشاب حلمه ، وفجأة اتضح له كل شئ فالمرأة العجوز لم تأخذ منه أجرا ، ولكن هذا الشيخ (ولعله يكون زوجها) سينجح فى أن يبتز منه أجرا أكبر بكثير فى مقابل معلومات كاذبة . لابد أن يكون غجريا هو أيضا .

ولكن قبل أن ينطق بحرف انحنى الشيخ والتقط غصنا جافا وبدأ يكتب على الرمل الذى يكسو أرض الميدان . وفى اللحظة التى أنحنى فيها لمع شئ على صدره ببريق كاد يعشى عينى الشاب ، غير أن الشيخ بادر بحركة فائقة السرعة بالنسبة لسنه إلى إحكام معطفه حول جسمه . تلاشى انبهار عينى الشاب واستطاع أن يرى بوضوح ما كان يكتبه الشيخ.

قرأ على رمل الميدان الرئيسى لتلك المدينة الصغيرة اسم والده ووالدته ، وقرأ قصة حياته حتى تلك اللحظة - ألعاب طفولته ، والليالى الباردة فى المدرسة الدينية . قرأ أشياء لم يقصها على إنسان قط ، مثل تلك المرة التى أختلس فيها سلاح والده لكى يصطاد بمفرده ، أو تجربته الجنسية الأولى مع نفسه.

قال الشيخ : أنا ملك سالم.

فسأله الشاب : ولماذا يتحدث ملك إلى راع ؟

كان منزعجا وفى أقصى درجات الحيرة.

- هناك عدة أسباب لذلك . ولكن فلنقل أهمها وهو أنك تمكنت من أن تحقق أسطورتك الذاتية.

ولم يكن الشاب يعرف ما هى «الأسطورة الذاتية».

- هى ما تمنيت دائماً أن تفعله . كل منا يعرف فى مستهل شبابه ما هى أسطورته الشخصية . ففى تلك المرحلة من العمر يكون كل شئ واضحا وكل شئ ممكنا ، ولا يخشى الإنسان من أن يحلم ومن أى يسعى وراء كل ما يشتهى أن يفعله فى الحياة ، ولكن مع مرور الوقت تبدأ قوة غامضة فى محاولة إثبات استحالة تحقيق اسطورته الذاتية.

لم يعن ما يقوله الشيخ الكثير للشاب . ولكنه أراد أن يعرف ما هى تلك «القوى الغامضة» التى سيبهر بها ابنة التاجر!

– هى قوى تبدو سيئة ولكنها فى الواقع تعلمك كيف تحقق أسطورتك الذاتية ، فهى التى تشحذ روحك وإرادتك ، لأن هناك حقيقة كبيرة فى هذا العالم : فأيا كنت ومهما كان ما تفعله ، فإنك عندما تريد شيئاً بإخلاص ، تولد هذه الرغبة فى روح العالم . تلك هى رسالتك على الأرض .

– حتى ولو كان الإنسان يرغب فقط فى الترحال أو فى أن يتزوج من ابنة تاجر نسيج ؟

– أو فى أن يبحث عن كنز . إن روح العالم تتغذى من سعادة البشر . أو تتغذى من تعاستهم ، ومن الحسد ، والغيرة والالتزام الوحيد للإنسان هو أن يحقق أسطورته الخاصة . كل الأشياء هى شئ واحد ، وعندما ترغب فى شئ يتآمر الكون كله ليسمح بتحقيق رغبتك.

لزما الصمت وراحا يراقبان الميدان والمارة ، وكان الشيخ هو أول من تكلم :

– لماذا تحتفظ بغنمك ؟

– لأنى أحب الترحال.

أشار بيده إلى بائع للذرة المحمرة (الفيشار) يقف فى ركن فى الميدان أمام عربة يده الحمراء وقال :

– هذا الرجل أيضاً أراد دائماً أن يسافر عندما كان طفلاً . ولكنه فضل أن يشترى عربة يد صغيرة ليبيع الفيشار ويجمع الأموال على مدار الأعوام

، وعندما يمسى عجوزا سيذهب ليقضى شهرا فى إفريقيا. لم يفهم أبداً أن هناك الفرصة دائما لأن يفعل الإنسان ما يحلم به.

فكر الفتى بصوت عال :

– كان بوسعه أن يختار أن يصبح راعيا.

– كثيرا ما فكر فى ذلك ، ولكن باعة الفيشار شخصيات أرقى من الرعاة. باعة الفيشار يملكون سقفا فوق رءوسهم أما الرعاة فينامون فى العراء والناس يفضلون تزويج بناتهم لباعة الفيشار على تزويجهن للرعاة.

شعر الشاب بانقباض فى قلبه حين تذكر ابنة التاجر ، فمن المؤكد أن هناك بائعا للفيشار فى المدينة التى يعيش فيها.

– وفى النهاية فإن رأى الناس فى باعة الفيشار وفى الرعاة يصبح بالنسبة لهم أهم من تحقيق أسطورتهم الذاتية.

تصفح العجوز الكتاب وأخذ يتسلى بقراءة صفحة . انتظر الشاب لحظة ثم قاطعه بالطريقة نفسها التى قاطعه بها الشيخ :

– لماذا تقول لى هذه الأشياء ؟

– لأنك تحاول أن تعيش أسطورتك الذاتية ، ولأنك توشك أن تتخلى عنها .

– وأنت تظهر دائما فى هذه اللحظة ؟

– ليس دائماً على هذه الصورة ، ولكنى لم أتخلف أبداً . أحيانا ما أظهر فى شكل فكرة جيدة ، تحل المشكلة ، وأحيانا ما أعمل فى لحظة حاسمة على أن تصبح الأشياء أيسر ، وما شابه ذلك. ولكن غالبية الناس لا يلاحظون شيئاً ».

وحكى أنه اضطر فى الأسبوع الفائت أن يظهر لأحد المنقبين عن الأحجار الكريمة على هيئة حجر . كان الرجل قد هجر كل شئ ليبحث عن الزمرد . ظل يعمل خمس سنوات بأكملها على طول مجرى أحد الأنهار ، وكسر تسعين ألفا وتسعمائه وتسعة وتسعين حجرا محاولا البحث عن زمردة. وفى تلك اللحظة فكر فى أن يتخلى عن العمل فى حين لم تكن قد تبقت غير حجرة واحدة . لكى يعثر على زمردته.

وبما أنه كان رجلا أخلص لأسطورته الذاتية ، فقد قرر الشيخ أن يتدخل.. حول نفسه إلى حجر تدحرج عند قدمى ذلك المنقب . وفى عاصفة من الغضب ، وكان الرجل يشعر بالإحباط بسبب السنين الخمس الضائعة، قذف بذلك الحجر بعيداً ، ولكنه ألقى به بعنف شديد فاصطدم بحجرة أخرى تحطمت وكشفت عن أجمل زمردة فى العالم .

قال الشيخ وفى عينيه نوع من الأسى :

– الناس يدركون فى وقت مبكر جداً مبرر وجودهم وربما كان هذا بالذات هو السبب فى أنهم يتخلون عنه مبكراً أيضاً . ولكن هذا هو حال العالم .

عندئذ تذكر الشاب أيضا أن نقطة البدء فى الحوار كانت هى الكنز المخبوء .

قال الشيخ : إن ما يكشف عن الكنوز هو السيول التى تجرف ، وتلك المياه نفسها هى التى تخفيها . وإذا أردت أن تعرف المزيد عن كنزك ، فلابد أن تهبنى عشر قطيعك.

- ألا ينفع أن أعطيك عشر الكنز ؟

بدا الإحباط فى وجه الشيخ وهو يقول :

- لو أخذت تعد بما لا تملك بعد فستفقد الرغبة فى الحصول عليه.

وعندما أخبره الراعى بأنه قد وعد الغجرية بعشر الكنز .

تنهد الشيخ وقال :

- الغجر ماكرون ، وعلى كل حال فمن المهم أن تتعلم أن لكل شئ فى الحياة ثمنا ، وذلك هو ما يحاول فرسان النور أن يعلموه للناس.

ثم رد الشيخ إلى الشاب كتابه وقال :

- غدا فى مثل هذه الساعة تأتينى بعشر قطيعك وسأدلك كيف تنجح فى العثور على الكنز المخبوء . هيا.

مساء الخير.

قالها ثم أختفى عبر واحدة من زوايا الميدان.

* * *

حاول الشاب أن يعاود القراءة ولكنه عجز عن التركيز كان منفعلا ومتوترا لأنه أدرك أن الشيخ قد قال الحقيقة . ذهب حتى البائع الجوال واشترى كيسا من الفيشار ، وهو يسأل نفسه طول الوقت عما إذا كان ينبغي أن ينقل له ما قاله الشيخ أم لا . وفكر أنه يحسن في بعض الأحيان ترك الأمور على ما هي عليه ، ومن ثم فإنه لم يقل شيئاً ، فلو تكلم لقضى بائع الفيشار ثلاثة أيام يفكر في أن يهجر كل شئ ، بعد أن أعتاد بالفعل على عربته الصغيرة . بوسعه أن يجنبه هذه الحيرة المؤلمة.

أخذ يتجول في المدينة ، وهبط حتي الميناء ، كان هناك مبنى صغير في واجهته شباك وكان الناس يتوجهون إليه لشراء التذاكر ، ومصر تقع في افريقيا .

سأله موظف الشباك : ماذا تريد ؟

فرد وهو يبتعد : ربما غدا.

يستطيع إذا ما باع شاة واحدة من قطيعه أن يعبر إلى أفريقيا على الضفة الأخرى ، وأفزعته هذه الفكرة.

قال موظف الشباك لزميله «ها هو واحد أخر من الحالمين» ، وأضاف بينما كان الشاب يبتعد «لا يملك ما يدفع به ثمن رحلته ».

فكر في شياهه وهو أمام الشباك وانتابه خوف من أن يعود إليها. كان قد تعلم خلال هاتين السنتين كل شئ عن تربية الأغنام . تعلم جز الصوف ورعاية الشياه الحوامل ، وحماية قطيعه من الذئاب . وعرف كل شئ عن الثمن الصحيح لشراء وبيع كل واحدة منه.

قرر أن يعود إلى حظيرة صديقه من أطول الطرق . وكان في هذه المدينة أيضا قصر ، فقرر أن يرتقي إليه الطريق الصاعد المرصوف بالحجارة وأن يجلس على السور ، فبوسعه من هناك أن يلمح إفريقيا . وكان

شخص ما قد شرح له أن المغاربة أتوا من هذا الطريق وأنهم احتلوا أسبانيا بأسرها لفترة طويلة وكره المغاربة ، فقد كانوا هم الذين أدخلوا الغجر.

وكان بوسعه أيضاً أن يرى من أعلى أكبر جزء من المدينة بما فى ذلك الميدان الذى تحاور فيه مع الشيخ.

قال لنفسه «ملعونة هى الساعة التى قابلت فيها هذا العجوز !» ، لقد ذهب ببساطة إلى امرأة تستطيع تفسير الأحلام . لكن لا هذه المرأة ولا الشيخ ألقيا بالا على الإطلاق إلى كونه راعيا . كانا شخصين وحيدين ما عادا يؤمنان بشىء فى الحياة ولم يفهما أن الرعاة ينتهون بأن يتعلقوا بماشيتهم.

كان يعرف كل واحدة منها معرفة عميقة؛ يعرف ما إذا كانت هناك واحدة تعرج . وأيها ستلد بعد شهرين ، وأيها الأكثر كسلا . وكان يعرف أيضا جز صوفها وذبحها – وإذا ما قرر أن يرحل فسوف تعانى .

بدأت الرياح تهب ، وهو يعرف تلك الرياح ، فهم يسمونها الشرقية ، لأن تلك الرياح هى التى حملت الغزاة ، ولكن لم يكن يتصور قط قبل أن يعرف تاريفا أن افريقيا قريبة إلى هذا الحد ، وهذا خطر داهم : فالمغاربة يمكنهم أن يغزوا البلاد من جديد.

اشتد هبوب الرياح الشرقية وفكر : «ها أنا موزع بين شياهى والكنز».

عليه أن يتخد قراراً . أن يختار بين شئ يألفه وشئ يتوق إلى امتلاكه . وهناك أيضا ابنة التاجر ولكنها ليست بمثل أهمية الشياه لأنها لا تعتمد عليه. وواتاه يقين بأنه لو لم ير الفتاة بعد يومين فإنها لن تلاحظ ذلك قط : فكل الأيام تتشابه فى نظرها . وعندما تصبح كل الأيام متشابهة ، فمعنى ذلك أن الناس قد كفوا عن أن يلحظوا الأشياء الطيبة التى تمر بحياتهم بينما تعبر الشمس السماء.

وقال لنفسه «لقد هجرت أبى وأمى والقصر فى المدينة التى ولدت فيها . لقد ألفوا ذلك وألفته أنا . وستكون الشياه بخير أيضاً أثناء غيابى».

راح يرقب الميدان من أعلى . كان البائع الجوال يواصل بيع الفيشار ، وجلس شاب وشابة على المقعد حيث تبادل الحديث مع الشيخ ، وتبادلا قبلة طويلة.

وهمس لنفسه «بائع الفيشار» ولم يكمل الجملة ، لأن الرياح الشرقية أخذت تعصف بشدة ، وشعر بها تلفح وجهه . لقد جاءت تلك الرياح بالمغاربة دون شك ، ولكنها جاءت أيضاً برائحة الصحراء والنسوة المحجبات ، جاءت بعرق الرجال وأحلامهم . أولئك الذين خرجوا ذات يوم بحثاً عن المجهول ، وبحثا عن الذهب وعن المغامرة .. وعن الأهرام . وأخذ الشاب يحسد الرياح على حريتها ، وأدرك أنه يمكن أن يصبح مثلها . لا يوجد ما يمنعه – غير نفسه .

فالشياه ، وابنة التاجر ، وحقول الأندلس ، ما هى إلا خطى على طريق أسطورته الذاتية.

* * *

فى اليوم التالى ذهب الراعى لمقابلة الشيخ مصطحبا ستة من الخراف وقال له :

– أنا مندهش ، فقد اشترى صديقى القطيع على الفور : أخبرنى أنه ظل طول عمره يحلم بأن يكون راعيا . وعليه فهذه علامة فأل حسن.

قال الشيخ :

– سيكون الأمر دائماً هكذا . ونحن نسمى هذا مبدأ المواتاة ، لو لعبت (الكوتشينة) للمرة الأولى فمن المؤكد أن تكسب . هذا حظ المبتدئين.

– وما السبب فى ذلك ؟

– أن الحياة تريدك أن تعيش أسطورتك الذاتية.

ثم بدأ الشيخ يفحص الخراف الستة ولاحظ أن واحدا منها يعرج ، وشرح الشاب أن هذا لا يهم لأنه أذكى خراف القطيع وينتج الكثير من الصوف ، ثم سأل :

– أين يوجد الكنز ؟

– الكنز فى مصر ، بالقرب من الأهرام.

صعق الشاب ، فقد قالت الغجرية الشئ نفسه لكنها لم تطلب أجراً .

– لكى تصل إلى الكنز فيجب أن تنتبه إلى العلامات . لقد خط الله فى العالم الطريق الذى ينبغى على كل منا أن يسلكه . وما عليك إلا أن تقرأ ما خطه لك.

وقبل أن يتمكن الشاب من الرد طارت فراشة بينه وبين الشيخ ، وتذكر

لحظتـهـا أن جـده كـان يقـول له وهو طفل إن الفـراشـات عـلامـة على الحظ الحسن ، شـأنها شـأن الجداجد صـرارة الليل ، والجراد الأخضر والسـحالى الرمادية الصغيرة ، والأعشاب النفلية المكونة من أربع وريقات...

وواصل الشيخ الذى يستطيع قراءة أفكاره :

– هذا صحيح .بالضبط كما علمك جدك : العلامات موجودة.

ثم فـتح المعطف الذى كـان يتـدثر به ، وذهل الشـاب مما رآه . مـتذكـراً الوهج الذى خطف بصره بالأمس .

كـان العـجـوز يلبس درعـا من الذهب السـميك المرصع كله بالأحـجـار الكريمة.

إذن فـهـو ملك حـقـا ، ولابد أنه يتنكر فى هـذه الهـيـئـة ليـتـخـفى من اللصوص..

انتزع الشـيخ من درعـه حـجـرا أبيض وأخر أسـود كـان فى وسط الدرع وقدمهما للشاب قائلاً :

– خـذ . هذان الحـجـران يسـمـيـان أوريم وتومـيم . الأسـود يعنى «نعم» والأبيض يعنى «لا» . عندمـا لا تصل أنت إلى الاسـتدلال بالعلامات ، فـسوف يفيدان ، ولكن أطرح عليهما دائما أسئلة محددة ، واسـع بوجه عام لأن تتخذ قـراراتك بنفـسك . إن الكنز بالقـرب من الهـرم . وأنت تعـرف هذا بـالفـعل ، ولكن أن تدفع الثمن سـتة خـراف فـهذا لأننى أنا الذى سـاعـدتك على اتخـاذ القرار .

ألقى الشاب بالحجرين في جرابه . وقرر أن يتخذ قراراته بنفسه.بدءا من هذه اللحظة.

- لا تنس أن كل الأشياء ما هي إلا شئ واحد ، ولا تنس لغة العلامات، ولا تنس ، قبل كل شئ، أن تمضي حتى نهاية أسطورتك الذاتية . ولكنني أود قبل أن تمضي أن أحكي لك حكاية قصيرة.

يحكي أن واحدا من التجار أرسل ابنه لكي يتعلم سر السعادة لدى أحكم رجل على سطح الأرض . ومشى الفتى أربعين يوما في الصحراء قبل أن يصل في النهاية إلى قصر جميل يقع على قمة جبل وفيه يسكن الحكيم الذي كان يسعى إليه . ولكن بطل حكايتنا بدلا من أن يجد قديسا وجد نفسه في بهو يدور فيه نشاط كبير. كان هناك تجار يدخلون ويخرجون ، وأشخاص يتبادلون الحديث في أحد الأركان . وفرقة موسيقية صغيرة تعزف أنغاما عذبة . وكانت هناك مائدة عامرة بأطايب الطعام المعروف في ذلك الجزء من العالم . وكان الحكيم يتحدث إلى هذا وذاك وتحتم على الشاب أن ينتظر ساعتين قبل أن يحين دوره.

أنصت الحكيم بانتباه إلى الشاب وهو يشرح الغرض من زيارته ، ولكنه قال له إن الوقت لا يتسع له الآن لأن يشرح سر السعادة ، وعرض عليه أن يقوم بجولة داخل القصر وأن يرجع لمقابلته بعد ساعتين ، ثم أضاف الحكيم وهو يقدم للفتى ملعقة صغيرة صب فيها نقطتين من الزيت:

«ولكنى أريد أن أطلب منك خدمة : أمسك بهذه الملعقة فى يدك ، طوال قيامك بجولتك ، وحاذر أن ينسكب منها الزيت ».

أخذ الفتى يصعد سلالم القصر ويهبط مثبتا عينيه طول الوقت على الملعقة وعندما انقضت الساعتان رجع لمقابلة الرجل الحكيم الذى سأله:

«إذن فهل رأيت السجاد الفارسى الذى يوجد فى غرفة الطعام ؟ وهل رأيت الحديقة التى أنفق البستانى العظيم عشر سنوات ليبدعها ؟ وهل استوقفتك المجلدات الجميلة فى مكتبتى ؟».

ارتبك الفتى وكان عليه أن يعترف أنه لم ير شيئاً من هذا كله ، فقد كان همه الأول هو ألا يسكب نقطتى الزيت اللتين عهد بهما إليه ، فقال له الحكيم:

«إذن فارجع وتعرف على روائع عالمى الصغير . لا يمكنك أن تعتمد على شخص لا تعرف البيت الذى يسكنه».

عاد إلى الفتى هدوؤه ، فأخذ الملعقة ورجع يتجول فى القصر منتبها فى هذه المرة إلى كل الروائع الفنية المعلقة على الجدران والمتدلية من السقف . وشاهد الحديقة والجبال المحيطة بها ، والزهور الرقيقة ، والرهافة التى تم بها تنسيق الأعمال الفنية فى الأماكن التى تلائمها ، وعندما رجع إلى الحكيم قص عليه بالتفصيل كل ما رأى ، فسأله الحكيم :

«ولكن أين قطرتا الزيت اللتان عهدت بهما إليك ؟».

عندئذ نظر الفتى إلى الملعقة فلاحظ أنهما قد انسكبتا ، فقال له حكيم الحكماء :

«وإذن فتلك هى النصيحة الوحيدة التى أستطيع أن أسديها إليك : إن سـر السـعـادة هو أن ترى روائع الدنيـا ولكن دون أن تسكب أبدا قطرتى الزيت من الملعقة».

ظل الراعى صـامـتـا ، وكان قـد فـهـم حكاية الملك. فـالراعى قد يحب الترحال، ولكنه لا ينسى شياهه أبدا .

راقب الشيخ الفتى ، وبراحتيه المبسوطتين أدى حركات غريبة فوق رأسه، ثم جمع غنمه وانصرف .

* * *

تشرف على مدينة «تاريفا» الصغيرة قلعة قديمة بناها المغاربة في سالف الزمان . ويمكن لمن يجلس على سورها أن يرى ميدانا وبائعا للفيشار وجزءا من أفريقيا.

وفى تلك الليلة جلس «ميلشيسيديك» ملك سالم على سور القلعة ولفحت وجهه الرياح المسماة بالشرقية . كما كانت الاغنام بالقرب منه لا تكف عن الحركة القلقة ، وهي تشعر بالاضطراب لتغيير راعيها ولكل هذه التنقلات ، كل ما كانت ترغب فيه هو أن تجد ما تأكل وما تشرب.

وأخذ «ميلشيسيديك» يرقب الباخرة الصغيرة التى راحت تبتعد عن الميناء .

لن يرى الراعى الصغير أبدا بعد اليوم تماما مثلما أنه لم ير إبراهيم بعد أن جعله يدفع العشور، ومع ذلك فقد كان هذا هو عمله . لا ينبغى أن تكون للآلهة رغبات ، لأن الآلهة ليست لها أسطورة ذاتية .

ولكنه تمنى من أعماق قلبه النجاح لذلك الشاب .

وفكر ملك سالم «ياللأسف لأنه سينسى اسمي عما قريب ! كان ينبغى أن أجعله يكرره عدة مرات ، حتى إذا ما تكلم عنى تسنى له أن يقول إنى ميلشيسيديك ملك سالم».

رفع عينين مذنبتين إلى السماء بسبب أفكاره تلك وقال نعم ، أعرف أن هذا غرور وأنه باطل الأباطيل مثلما قلت أنت يا يسوع .

ولكن يحق للملك عجوز أن يفخر بنفسه أحيانا»!

* * *

«يا لأفريقيا من بلد غريب !».

هكذا فكر الشاب وهو يجلس فى مقهى من نوع ما ، شبيه بالمقاهى الأخرى التى استطاع أن يراها وهو يجتاز الأزقة الضيقة لتلك المدينة . كان الرجال يدخنون غلايين عملاقة يتناقلونها من فم إلى فم . واستطاع خلال بضع ساعات أن يرى رجالا يسيرون متشابكى الأيدى ، ونساء محجبات الوجه ، وشيوخا يصعدون إلى قمة أبراج عالية ويشرعون فى النداء ، ورجالا يركعون ويلمسون بجباههم الأرض .

هرطقة ! كان قد رأى وهو طفل فى كنيسة قريته تمثالا للقديس جاك الكبير على صهوة حصانه الأبيض مسددا رمحه نحو أشخاص يشبهون هؤلاء الناس ، وشعر بقلق وفكر أن نظراتهم مخيفة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه فى عجلة الرحيل الكبير ، نسى أحد التفصيلات ، تفصيل صغير جداً، يمكن بالفعل أن يحول بينه وبين كنزه لفترة طويلة ، وهو أن كل الناس فى هذا البلد يتكلمون العربية.

اقترب منه صاحب المقهى ، فأشار له بإصبعه إلى مشروب رآه يقدمه على منضدة أخرى . اتضح أنه شاى وشاى مر أيضاً . وكان هو يفضل أن يشرب نبيذاً.

ولكن تلك لم تكن بالتأكيد هى اللحظة التى ينبغى أن يفكر فيها فى هذه الأشياء . الأحرى ألا يفكر إلا فى كنزه ، وفى الطريقة التى سيضع بها يده عليه . استطاع بعد بيع قطيعه أن يضع فى جيبه مبلغا كبيرا من المال ، وكان يعرف أن المال شئ سحرى ، فالإنسان لا يكون مع المال وحيداً تماما

، وبعد قليل من الوقت – ربما فى خلال بضعة أيام – سيكون تحت سفح الأهرام . لا يحتاج شيخ يملك كل هذا الذهب الذى يلمع علىّ صدره أن يؤلف أكاذيب لكى يحصل على ستة خراف.

حدثه الملك العجوز عن العلامات ، فظل طول عبور المضيق يفكر فى العلامات نعم ، هو يعرف جيداً ما كان يتكلم عنه ، فقد اعتاد طوال تلك الفترة التى قضاها فى ريف الاندلس أن يقرأ على الأرض وفى السماء علامات الطريق الذى ينبغى أن يسلكه . وتعلم أن هذا الطير يكشف عن وجود ثعبان قريب ، وأن تلك الشجيرة تدل على وجود الماء على مبعدة بضعة كيلو مترات ، لقد علمته الخراف هذه الأشياء.

وقال لنفسه «إن كان الله يرشد الغنم بهذه الطريقة فسيرشد الإنسان أيضاً . شعر بالإطمئنان وبدا مذاق الشاى أقل مرارة.

ثم سمع شخصا يسأله بالأسبانية : من أنت ؟

وشعر براحة عظمى ، كان يفكر فى العلامات فظهر له شخص ما .

– كيف تعرف الأسبانية ؟

كان الوافد الجديد فتى يرتدى زيا غربيا ، ولكن لون بشرته أوحى بأنه من أبناء المدينة ، وكان فى مثل قامة الشاب وسنه تقريبا.

– هنا يتكلم كل الناس تقريبا الأسبانية . نحن على مبعدة بضع ساعات لاغير من أسبانيا .

– أجلس واطلب شيئاً على حسابى ، وأطلب لى نبيذا فأنا أمقت هذا الشاى.

- لا يوجد نبيذ هنا . فالدين يمنعه .

عندئذ قال الشاب إنه لابد أن يذهب حتى الأهرام.

وكان على وشك أن يتحدث عن الكنز ، ولكنه آثر الصمت فى النهاية ، فبوسع هذا العربى أن يطلب جزءا من الكنز فى مقابل اصطحابه حتى هناك . تذكر ما قاله له الشيخ.

- أريدك أن تصحبنى حتى هناك ، وأستطيع أن أدفع لك أجر الدليل.

- هل لديك فكرة عن طريقة الوصول إلى هناك ؟

ولاحظ ساعتها أن صاحب المقهى كان يقف بالقرب منهما وهو ينصت بانتباه إلى ما يقولان ، وأحرجه وجوده بعض الشئ ، ولكنه قد وجد دليلا فلن يفرط فى هذه الفرصة . قال له الوافد الجديد.

- يجب أن تعبر الصحراء كلها ، ولكى تفعل ذلك فينبغى أن يكون لديك المال ، وأود أن أعرف أن كان لديك ما يكفى.

وجد الشاب هذا السؤال فضوليا ، ولكنه كان يثق فى الشيخ الذى قال له إنك عندما تريد شيئاً بإخلاص فإن العالم كله يتآمر لمصلحتك .

أخرج نقوده من جيبه وأظهرها لرفيقه الجديد ، فاقترب صاحب المقهى ونظر بدوره ثم تبادل الرجلان بضع كلمات بالعربية . كان صاحب المقهى غاضبا .

قال الفتى : هيا بنا ننصرف من هنا ، فهو لا يريدنا أن نبقى.

شعر الشاب بأنه أكثر اطمئنانا ، فنهض لكى يدفع ما عليه لكن صاحب

المقهى أمسك بذراعه وراح يهدر بحديث طويل ودون لحظة صمت ، كان الشاب متين النبيان ولكنه في بلد غريب غير أن صاحبه كان هو الذى دفع صاحب المقهى جانبا واصطحبه إلى الخارج قائلا :

- كان يريد نقودك . طنجة ليست كبقية أفريقيا هنا نحن فى ميناء ، والموانئ عادة أوكار للصوص .

بوسعه إذن أن يثق بصديقه الجديد الذى هب لنجدته وهو في موقف حرج . أخرج النقود من جيبه وشرع يعدها .

قال الآخر وهو يأخذ النقود :

- يمكننا أن نكون غدا عند سفح الأهرام ، ولكن يجب أن أشترى جملين.

ثم مضيا معا ، عبر أزقة طنجة الضيقة . كانت كل الزوايا والأركان مزدحمة ببضائع معروضة للبيع . وأخيرا وصلا إلى قلب الميدان الكبير حيث يقام السوق وكان هناك آلاف من الأشخاص يتجادلون ويبيعون ويشترون ، الخضر والخناجر جنبا إلى جنب ، ومعها السجاجيد والنراجيل من كل الأنواع . ولم تفارق عينا الشاب صاحبه الجديد . لم ينس أنه يحمل الآن كل ثروته . وفكر فى أن يطلب منه ردها ولكنه قدر أن هذا سيكون عملا خاليا من الذوق . لم يكن يعرف عادات هذه البلاد الأجنبية التى وطأها الان بقدميه وفكر «يكفى أن أراقبه» ، وكان هو أمتن بنيانا من الآخر .

وفجأة وسط ذلك الزحام الهائل وقعت عيناه على أجمل سيف فى

الوجود. كان سلاحه فضيا ومقبضه أسود مرصعا بالحجارة الكريمة . وعاهد نفسه أن يشترى هذا السيف لدى عودته من مصر ، فقال لصاحبه :

– اسأل التاجر عن ثمنه .

ولكنه انتبه إلى أنه قد غفل عنه لمدة ثانيتين كان يتأمل خلالهما السلاح .

انقبض قلبه كما لو كان صدره قد تقلص فى الحجم ، وخشى أن ينظر جانبا ، عالما ما ينتظره . ظل يثبت عينيه لحظة على السيف البديع ، ثم تسلح بالشجاعة والتفت .

كان الناس حوله فى الميدان فى كل مكان – يذهبون ويجيئون ويصيحون ويشترون السجاجيد والجوز والسلاطة الخضراء والصوانى النحاسية ، كان هناك الرجال المتشابكو الأيدى ، والنسوة المحجبات وروائح البضائع الحريفة ولكن لم يكن هناك فى أى مكان ، فى أى مكان على الإطلاق ، طيف صاحبه .

أراد مع ذلك أن يعتقد أنه قد تاه عنه بالمصادفة ، وقرر أن يظل فى مكانه على أمل أن يرجع ، وبعد فترة صعد شخص إلى واحد من تلك الأبراج وشرع فى ندائه المرتل . وبدأ كل من حوله يركعون ويلمسون بجباههم الأرض ويرتلون بدورهم .

وبعد ذلك وكما لو كانوا مملكة من النمل تعمل ، شرعوا يفككون منصاتهم ثم انصرفوا .

وغابت الشمس بدورها ، ظل الشاب يراقبها مدة طويلة إلى أن

اختفت خلف البيوت البيضاء التى تحيط بالميدان ، وفكر أنه عندما أشرقت هذه الشمس نفسها في الصباح ، كان فى قارة أخرى ، وكان راعيا ، وكان يمتلك ستين من الخراف ولديه موعد مع إحدى الفتيات . فى الصباح كان يعرف كل ما يمكن أن يجرى وهو يعبر الريف .

أما الآن وقد غربت الشمس فهو فى بلد غريب لا يفهم فيه حتى اللغة التى يتكلم بها الناس . لم يعد راعيا ، ولم يعد يملك شيئا ، ولا حتى النقود اللازمة لكى يعود أدراجه ويبدأ من جديد .

وقال لنفسه «وكل هذا بين شروق الشمس وغروبها» وأخذ يرثى لحاله وهو يفكر أن الأشياء تتغير فى الحياة خلال برهة قصيرة ، حتى قبل أن يتاح للإنسان وقت كاف لكى يعتاد الأشياء . خجل من أن يبكى ، فهو لم يبك أبدا أمام شياهه لكن ميدان السوق كان واسعا ، وكان هو بعيدا عن وطنه .

وبكى ، بكى لأن السماء لم تكن عادلة ولأنها تكافئ بهذه الطريقة الأشخاص الذين يصدقون أحلامهم .

«عندما كنت مع غنمى كنت سعيدا وكنت أشرك فى سعادتى كل من حولى ، كان الناس يروننى قادما فيحسنون استقبالى . أما الآن فأنا حزين وتعيس ، فماذا سيحدث لى ؟ سأصبح شخصا ممرورا ولن أثق بإنسان لأن شخصا قد خدعنى . سأكره كل من وجدوا كنوزا مخبوءة لأنى لم أعثر على كنزى ، وسأظل إلى الأبد حريصا على القليل الذى أملكه لأنى أضأل من أن أغير المصير .

فتح جرابه لكى يرى ما بداخله ، عسى أن تكون هناك قضمة أخرى من

الشطيرة التى أكلها على ظهر الباخرة ، ولكنه لم يجد غير الكتاب الكبير والمعطف والحجرين اللذين أعطاهما إياه الرجل العجوز .

وعندما رأى هذين الحجرين شعر براحة كبيرة . لقد استبدل ستة من غنمه بحجرين كريمين منتزعين من درع ذهبى . يستطيع أن يبيعهما وأن يحصل بذلك على ثمن تذكرة العودة . وقال لنفسه «منذ الآن سأصبح أشد حرصا» وأخرج الحجرين من الجراب لكى يضعهما فى جيبه ، فهذا ميناء والشئ الوحيد الصحيح الذى قاله ذلك الشخص هو أن الموانئ ممتلئة دائما باللصوص .

الآن فقط فهم محاولات صاحب المقهى اليائسة : كان يريد أن يقول له ألا يثق بهذا الشخص «ولكنى مثل كل الآخرين ، فأنا أرى الدنيا على نحو ما أرغب فى أن تكون لا كما هى عليه بالفعل»

ظل يتأمل الحجرين وتحسس كلا منهما برقة يستشعر حرارته ونعومة ملمسه . هما الآن كنزه ، وتذكر بهما الرجل العجوز وما قاله له «عندما تريد شيئا بإخلاص فإن العالم كله يتآمر بحيث تحصل عليه» ، وود أن يفهم كيف يمكن أن يصح ذلك ، فها هو فى ساحة سوق مهجور ، خاوى الوفاض ، ولا يملك قطيعا يرعاه أثناء الليل . لكن الحجرين دليل على أنه قد قابل ملكا - ملك يعرف قصة حياته وما فعله بسلاح أبيه ويعرف تجربته الجنسية الأولى .

«ثم إن هذين الحجرين يساعدان على التنبؤ ، واسمهما أوريم وتوميم» . وضعهما فى مكانهما فى الحقيبة وقرر أن يجرى التجربة . وكان الشيخ قد قال له أن يسأل أسئلة محددة ، لأن الحجرين لا

ينفعان إلا إن كان المرء يعرف ما يريد . وهكذا فقد سأل الشاب عما إذا كانت بركة الشيخ مازالت تحل عليه ، ثم سحب أحد الحجرين ، وكان هو «نعم» .

ثم سأل «هل سأعثر على كنزى ؟» ووضع يده داخل الجراب وكان على وشك أن يسحب أحد الحجرين عندما انزلقا معا من ثقب فى النسيج ، ولم يكن قد لاحظ قط أن جرابه مثقوب . انحنى لكى يلتقط أوريم وتوميم ويضعهما داخل الحقيبة ، ولكنه عندما رآهما على الأرض عادت إلى ذهنه عبارة أخرى قالها الملك العجوز : «تعلم أن تحترم العلامات وأن تتبعها» .

علامة ! .. شرع الشاب يضحك فى سره ثم وضع الحجرين فى الجراب. لم تكن لديه النية فى أن يخيطه ، يمكن للحجرين أن يسقطا من هذا الثقب عندما يريدان . أدرك أن هناك أشياء ينبغى ألا يسأل عنها لكى لا يهرب من مصيره وقال لنفسه :

«لقد وعدت أن أتخذ قراراتى بنفسى» .

ولكن الحجرين قالا إن الشيخ معه دائما ، وردت له هذه الإجابة الثقة . نظر مرة أخرى إلى السوق المهجور ولم يعد يشعر باليأس الذى كان يعانى منه من قبل . لم يعد هذا عالما غريبا ، بل أصبح عالما جديدا ، وأخيرا ، ألم يكن هذا بالضبط هو ما أراد . أن يعرف عوالم جديدة ؟ وحتى ولو لم يصل قط إلى الأهرام ، فهو قد ذهب بالفعل إلى أبعد بكثير مما ذهب إليه أى راع يعرفه . «أه لو عرفوا أنه على مبعدة أقل من ساعتين بالباخرة توجد كل هذه الأشياء المختلفة ! ...»

كان العالم الجديد يبدو الآن لعينيه فى صورة سوق خال ، ولكنه رأى بالفعل هذا المكان وهو يضج بالحياة ، ولن ينساه أبدا ، وتذكر السيف ، لقد دفع ثمنا غاليا لكى يتأمله للحظة ، ولكنه أيضا لم ير مثيلا له أبدا قبل الآن ، وباغته الشعور بأنه يمكن أن ينظر للعالم إما كضحية تعس لأحد اللصوص، وإما كمغامر يبحث عن كنز .

وفكر قبل أن يغرق فى النعاس من الإجهاد «أنا مغامر أبحث عن كنز»!.

* * *

أيقظته يد تهز كتفه وكان قد نام وسط ساحة السوق الذى بدأ الآن يسترد حياته .

تلفت حوله يبحث عن غنمه ثم أفاق على أنه الآن فى عالم جديدا . وبدلا من أن يحزن شعر بالسعادة . لم يعد عليه أن يسعى بحثا عن الماء والغذاء ، وبوسعه أن يشرع فى البحث عن كنزه ، فقد اختار مساء الأمس أن يصبح مغامراً مثل شخصيات الكتب التى اعتاد أن يقرأها .

أخذ يتجول فى الميدان متمهلا . كان الباعة قد شرعوا يقيمون منصاتهم وساعد رجلا يبيع الحلوى على نصب منصته . كانت تميز وجه ذلك الرجل ابتسامة تختلف عن الآخرين - كان سمح الوجه ، متفتحا على الحياة ، ومستعدا لاستقبال يوم طيب من العمل ، كانت ابتسامة ذكرته بطريقة ما بالشيخ ، ذلك الملك الغامض ، وقال لنفسه «هذا البائع لا يصنع الحلوى لأنه يريد أن يرحل أو يريد أن يتزوج ابنة تاجر ، لا ، إنه يصنع الحلوى ، لأنه يحب هذه المهنة» . هكذا فكر الشاب ولاحظ أنه يستطيع أن يفعل مثل الشيخ : أى معرفة ما إذا كان الشخص قريبا من أسطورته الذاتية أو بعيدا عنها فهو لا يحتاج سوى أن ينظر إلى هذا الشخص ، وقال لنفسه «هو شئ سهل ولكنى لم ألاحظه أبدا من قبل»

وعندما انتهيا من نصب المنصة قدم له الرجل أول قطعة أعدها من الحلوى، فالتهمها الشاب مغتبطا ، وشكره ثم مضى فى الطريق . وعندما ابتعد قليلا خطر على باله أن شخصين هما اللذان نصبا المنصة ، أحدهما كان يتكلم العربية والآخر الأسبانية . ومع ذلك فقد كان هذان الشخصان متفاهمين تماما وقال لنفسه :

«هناك لغة تتجاوز الكلمات . عرفت ذلك بالفعل مع الشياه وهاأنذا الآن أعرفه مع الرجال» .

ها هو إذن فى طريقه إلى أن يعرف الكثير من الأشياء الجديدة ، أشياء جربها من قبل ، ولكنها جديدة مع ذلك لأنها كانت تعبر طريقه دون أن يعيرها التفاتا لأنه اعتاد عليها . «ولو توصلت إلى معرفة كنه هذه اللغة التى تتجاوز الكلمات لتوصلت إلى معرفة كنه العالم» .

قرر أن يتجول على مهل فى شوارع طنجة ، فهذه هى الطريقة الوحيدة التى سينجح بها فى سبر غور العلامات . وهذا يقتضى دون شك قدرا كبيرا من الصبر ، ولكن الصبر هو أولى الفضائل التى يتعلمها الراعى .

ومرة أخرى أدرك أنه يطبق فى هذه الأرض الغريبة الدروس نفسها التى تعلمها من غنمه» .

وكان الشيخ قد قال «كل الأشياء هى شئ واحد» .

* * *

رأى بائع الكريستال النهار يطلع وشعر بنفس إحساس القلق الذى ينتابه كل صباح . ظل ما يقرب من ثلاثين عاما فى هذا المكان نفسه ، فى دكان يقع فى قمة شارع صاعد ، من النادر أن يمر فيه زبون . والآن تأخر الوقت لأن يغير أى شئ ، فكل ما تعلمه فى حياته هو بيع القطع البللورية ، جاء وقت عرف فيه محله رواجا لدى كثير من الناس : تجار من العرب ، وجيولوجيون فرنسيون وإنجليز ، وجنود ألمان كانت جيوبهم دائما عامرة بالمال ، فى ذلك الوقت كان بيع الكريستال مغامرة ناجحة ، وتخيل كيف سيصبح رجلا ثريا وتخيل حشد الجميلات اللائى سيكن من نصيبه .

لكن الوقت ضاع شيئا فشيئا شأنه شأن المدينة نفسها . فقد ازدهرت سبتة أكثر من طنجة ، واتخذت التجارة سبيلا آخر . انصرف الجيران بحثا عن أماكن أخرى ، ولم تبق سوى ندرة من المحلات فى ذلك المرتفع ، وما كان من الممكن أن يتسلق كثير من الأشخاص طريقا صاعدا من أجل بضعة محلات بائسة .

ولكن لم يكن أمام تاجر الكريستال خيار ، فقد عاش ثلاثين عاما من حياته يشترى القطع البللورية ويبيعها وقد فات وقت تغيير الاتجاه .

أخذ طول النهار يرقب المارة القليلين فى الشارع الصغير ، وكان هذا هو ما ظل يفعله منذ سنوات طويلة فأصبح يعرف عادات كل من المارة .

وقبيل دقائق من موعد الغداء توقف شاب أجنبى أمام الواجهة الزجاجية . كان يرتدى ثيابا عادية كسائر الناس ولكن عين بائع الكريستال المدربة أبصرت أنه مفلس . وبالرغم من ذلك فقد قرر أن يعود إلى داخل محله وأن ينتظر بضع دقائق إلى أن ينصرف الشاب .

* * *

كانت هناك لافتة معلقة على الباب تقول إنهم يتحدثون هنا عدة لغات ، ورأى الشاب شخصا يظهر من خلف طاولة البيع ، فقال له :

– أستطيع إذا ما أردت أن أنظف هذه المزهريات ، فلن يشتريها أحد بحالتها هذه . نظر إليه البائع دون أن يقول شيئا فأضاف :

– وفى المقابل ستدفع لى وجبة طعام .

ظل الرجل صامتا ، وفهم الشاب أن عليه هو أن يتخذ قرارا . كان فى جرابه المعطف الذى لن يحتاج إليه فى الصحراء فأخرجه وشرع فى تنظيف المزهريات وتمكن فى خلال نصف ساعة من تنظيف كل «الكريستال الموجود فى نافذة العرض ، ودخل أثناء ذلك اثنان من الزبائن اشتريا منه الكثير» .

وعندما انتهى من تنظيف كل شئ طلب من صاحب المحل أن يقدم له شيئا من الطعام .

قال بائع الكريستال :

فلنذهب لنتغدى معا .

علق لافتة على الباب وذهبا معا إلى مقصف صغير جدا فى قمة المرتفع ، وبمجرد جلوسهما إلى المائدة الوحيدة فى المكان قال له بائع الكريستال وهو يبتسم :

– لم يكن هناك داع إلى أن تنظف أى شئ ، فشريعة القرآن تقضى بتقديم الطعام إلى أى جائع .

– فلم إذن تركتنى أقوم بهذا العمل ؟

– لأن الكريستال كان قذرا ، ولأنك أنت وأنا كنا بحاجة إلى أن ننظف رأسينا من أفكار سيئة .

وحين انتهيا من طعامهما التفت بائع الكريستال إلى الشاب قائلا :

– أود أن تعمل فى محلى ، فقد دخل اليوم اثنان من الزبائن بينما كنت تنظف الكريستال ، وتلك علامة فأل حسن .

وفكر الراعى أن الناس يتحدثون كثيرا عن العلامات ولكنهم لا يعرفون بالضبط عم يتكلمون ، مثلى تماما ، عندما لم ألاحظ أبدا أننى ظللت منذ سنوات أتحدث مع شياهى لغة بلا كلمات ألح البائع فى السؤال :

– هل ترغب فى أن تعمل معى ؟

– أستطيع أن أعمل بقية اليوم ، سأنظف كل الكريستال الموجود فى المحل حتى الفجر ، وفى المقابل ستعطينى مالا لكى أكون غدا فى مصر .

فجأة انفجر العجوز فى الضحك .

– حتى ولو نظفت ما عندى من الكريستال طوال عام بأكمله ، وحتى لو أخذت عمولة طيبة مقابل بيع كل قطعة منه فسيلزمك بعد ذلك كله أن تقترض مالا لكى تصل إلى مصر ، فبين طنجة والأهرام آلاف الكيلو مترات من الصحراء .

وحل عندئذ صمت كما لو أن المدينة بأكملها قد نامت فجأة .

لم تعد هناك محال . وانتهت المناقشات بين التجار ، وانتهى نداء الرجال الذين يصعدون المآذن ، والسيوف الجميلة ذات المقابض المطعمة بالصدف . انتهى الأمل فى المغامرة والملوك والشيوخ والأساطير الذاتية . وداعا للكنز ووداعا للأهرامات . بدا وكأن الخرس قد أصاب العالم كله لأن روح الفتى لزمت الصمت . لم يكن هناك ألم ولا معاناة ولا خيبة أمل – بل هى نظرة خاوية عبر باب المقصف الصغير ، ورغبة عارمة فى الموت ، وفى رؤية كل شئ ينتهى فى تلك اللحظة ذاتها .

نظر إليه البائع مبهوتا . بدا وكأن كل تلك الحمية التى استطاع أن يراها فى الصباح قد تبخرت فجأة .

قال بائع الكريستال : أستطيع يا بنى أن أعطيك نقودا كى تعود إلى بلدك .

ظل الشاب صامتا ، ثم نهض وسوى ثيابه وأمسك بجرابه وقال :

– سأعمل عندك .

وبعد فترة أخرى من الصمت أنهى كلامه قائلا :

– يلزمنى بعض المال لكى أشترى غنما .

القسم الثانى

انقضى شهر تقريبا منذ عمل الشاب لدى تاجر الكريستال دون أن يجد في العمل ما يرضيه حقا . لم يكن التاجر يكف عن الدمدمة طول النهار من خلف طاولته ليوصيه بأن يحترس لدى تناول قطعة الكريستال حتى لا يكسر شيئا .

ولكنه استمر فى عمله مع ذلك لأن تاجر الكريستال وإن كان عجوزا دائم التذمر ، إلا أنه على الأقل كان عادلا مع عامله الذى اعتاد أن يحصل على عمولة مرتفعة مقابل كل قطعة مبيعة ، فاستطاع بالفعل أن يدخر بعض المال. وأجرى حساباته فى ذلك الصباح - لو استمر يعمل على هذا المنوال كل يوم ، فستلزمه سنة بأكملها ليتمكن من شراء بضعة خراف .

قال الشاب لمخدومه :

- أود أن ننصب واجهة عرض للكريستال ويمكننا أن نضع حاملا للرفوف في الخارج يجتذب المارة من عند سفح الطريق .

- لم أفعل شيئا مثل هذا من قبل ، فالناس قد يصطدمون بحامل الرفوف أثناء مرورهم ويتحطم الكريستال .

- عندما كنت أجول فى الريف مع شياهى كان من الممكن دائما أن تسقط إحداها ضحية للدغة ثعبان ، ولكن هذا الخطر هو جزء من حياة الأغنام والرعاة .

ذهب التاجر ليخدم زبونا يريد أن يشترى ثلاث مزهريات من الكريستال، فهو يبيع الآن أكثر بكثير من ذى قبل كما لو كان الزمن قد رجع إلى الوراء أيام كان الشارع احدى نقاط الجذب الرئيسية فى طنجة ، وبعد أن انصرف الزبون قال لعامله :

– الناس يتوافدون علينا الآن باستمرار ، وما نكسبه يكفى لكى أعيش حياة أفضل ولكى تشترى خرافا من جديد خلال وقت قصير ، فما الداعى إلى أن تطلب من الدنيا المزيد ؟

رد الشاب دون تفكير :

– لأننا يجب أن نتبع العلامات .

ثم ندم على ما قاله لأن التاجر لم يتسن له قط أن يقابل ملكا تحدث عن مبدأ المواتاة وعن حظ المبتدئين وعن الأسطورة الذاتية .

ولكن التاجر فهم مع ذلك ما كان يتحدث عنه عامله . فمجرد وجوده فى المحل كان علامة . وهو لم يندم أبدا على استخدامه للشاب الأسبانى بعد أن راحت الأموال تتدفق عليه يوما بعد يوم ، وبما أنه قد ظل يعتقد لفترة طويلة أن مبيعاته لن تزيد قط ، فقد راح الآن يقدم للشاب عمولة مرتفعة ، وكان حدسه يقول له إن الفتى سيرحل عما قريب إلى شياهه . ولكى يحول دفة الحديث بعيدا عن حكاية واجهة العرض فقد سأله :

– لماذا تريد أن تذهب لرؤية الأهرام ؟

– لأنى سمعت عنها الكثير .

تجنب الحديث عن حلمه ، فقد أصبح الكنز الآن ذكرى مؤلمة يجاهد لكى لا تعود إلى ذهنه . قال البائع :

– لا أعرف أحدا هنا يود أن يعبر الصحراء لمجرد أن يرى الأهرام ، هى لا تعدو أن تكون كومة من الحجارة ويمكنك أن تبنى هرما مثلها فى حديقة بيتك .

– أنت لم تحلم أبدا بأن تسافر .

قالها الشاب ثم مضى يخدم زبونا آخر دخل المحل .

وبعد يومين عاد الرجل العجوز إلى الحديث عن موضوع واجهة العرض مع الشاب :

– أنا لا أحب التغيير كثيرا ، فلا أنا ولا أنت مثل حسن ، ذلك التاجر الغني – فهو إن أخطأ في بعض مشترياته ، لن يصيبه من ذلك ضرر كبير . أما نحن الاثنين فيجب أن نتحمل عواقب أخطائنا .

فكر الشاب : ذلك قول حق .

وسأله التاجر : لماذا تريد أن تقيم هذه الواجهة للعرض ؟

– أريد أن أعود بأسرع ما يكون إلى شياهي . عندما يحالفنا الحظ فيجب أن نغتنم الفرصة وأن نفعل كل ما بوسعنا لكي نساعده بنفس الطريقة التي يساعدنا بها . وذلك هو ما يسمونه مبدأ المواتاة أو «حظ المبتدئين» .

لزم العجوز الصمت لحظة ثم قال :

– لقد أبلغنا رسولنا القرآن الذي لم يكلفنا سوى بخمس فرائض نلتزمها مدى الحياة ، أهمها جميعا هي أنه لا إله إلا الله* » .

والفرائض الأربع الأخرى هي إقامة خمس صلوات في اليوم .

وصوم رمضان ، وواجب الزكاة للفقراء .

ثم لزم الصمت وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتحدث عن رسول الإسلام. كان رجلا يعمر الإيمان قلبه ، ومع أنه يبدو في بعض الأحيان نافد الصبر ، فقد كان يجهد لكي يعيش ملتزما بشريعة الإسلام .

سأله الشاب : وما هي الفريضة الخامسة ؟

---

* وأن محمدا «صلى الله عليه وسلم» رسول الله، فبنص الشهادة تكتمل الفريضة الأولى(المترجم)

– أنت قلت لى منذ يومين أنى لم أحلم أبدا بالسفر ولكن الفريضة الخامسة على كل مسلم مؤمن هى أن يسافر فى رحلة .

إذ يجب علينا أن نسافر مرة فى العمر على الأقل إلى أرض مكة المقدسة. ومكة أبعد من الأهرام بكثير .

لكنى عندما كنت شابا فكرت في استثمار ما كان لدى من مال قليل فى فتح هذا المحل ، أملا أن أصبح في يوم من الأيام ثريا بما يكفى للسفر إلى مكة . والواقع أنى بدأت أكسب مالا ولكنى لم أستطع أن أعهد إلى أحد بالكريستال ، لأن الكريستال شئ هش . وفى أثناء ذلك شاهدت كثيرا من الناس يمرون أمام هذا المحل في طريقهم إلى مكة . كان هناك الحجاج الأثرياء ، الذين يصحبهم حشد من الخدم وتقلهم كثير من الجمال – ولكن الغالبية كانوا أناسا أفقر منى بكثير .

كلهم سافروا وعادوا سعداء ، وعلقوا على أبواب بيوتهم شعارات حجهم . واحد من هؤلاء كان اسكافيا يكسب عيشه من إصلاح نعال الناس وقد قال لى إنه سار على قدميه قرابة سنة فى الصحراء ليحج ، ولكنه يشعر بمزيد من التعب عندما يتحتم عليه أن يقطع مسافة قصيرة في طنجة لكى يشترى الجلود .

– ولماذا لا تذهب الآن إلى مكة ؟

– لأن مكة هى التى تبقينى على قيد الحياة ، ذلك ما يهبنى القوة لاحتمال كل تلك الأيام المتشابهة وتلك المزهريات المزروعة على الأرفف ، والغداء والعشاء فى ذلك المقصف التعس . وأنا خائف من أن أحقق حلمى فلا يبقى لى بعد ذلك ما أعيش من أجله .

أنت تحلم بالخراف وبالأهرام ، ولست مثلى لأنك تريد أن تحقق حلمك ، أما أنا فكل ما أريده هو أن أحلم بمكة .

تخيلت بالفعل آلاف المرات عبوري للصحراء ووصولي إلى موضع الحجر المقدس وطوافي سبع مرات حوله ، ولمسي إياه. تخيلت من سيكون إلى جانبي ومن سيكون أمامي والتكبيرات والصلوات التي سنصليها معا ولكني خائف من خيبة أملي الكبيرة ، إلى درجة إني أفضل أن اقتصر على الحلم .

وفي ذلك اليوم نفسه أذن التاجر للفتى أن يقيم واجهة العرض .

لا يسع الناس جميعا أن ينظروا إلى أحلامهم بالطريقة نفسها .

* * *

مر على ذلك شهران ، واجتذبت واجهة العرض عددا كبيرا من الزبائن إلى محل الكريستال . وقدر الشاب أنه إذا ما عمل ستة أشهر أخرى فيمكن أن يعود إلى أسبانيا ويشترى ستين خروفا ، بل وستين أخرى فوقها ، وهكذا يكون قد ضاعف قطيعه فى أقل من سنة ، ويمكنه أن يتاجر مع العرب لأنه نجح فى تعلم تلك اللغة الأجنبية .

هو لم يستخدم منذ ذلك الصباح المشهود فى ساحة السوق أوريم وتوميم، لأن مصر أصبحت بالنسبة له حلما بعيد المنال كمكة لبائع الكريستال . ومع ذلك فهو الآن راض عن وظيفته ولا يكف عن الحلم باليوم الذى سيرسو فيه على أرض تاريفا ظافرا .

كان الملك العجوز قد قال له «تذكر أنك يجب أن تعرف دائما ما تريد» ، وهو يعرف الآن ما يريده ، ويعمل من أجل هدفه .

لعل كنزه يكون هو مجيئه إلى هذه الأرض الأجنبية ووقوعه فى براثن لص ، ومضاعفته لعدد خرافه دون أن ينفق شيئا .

كان فخورا بنفسه ، فقد تعلم أشياء مهمة ، مثل تجارة الكريستال ، واللغة بغير الكلمات، والعلامات . وفى عصر أحد الأيام رأى رجلا عند قمة الطريق المرتفع يشكو من عدم وجود مكان مناسب يشرب فيه الإنسان شيئا بعد أن يتسلق هذا الطريق الصاعد . وكان الشاب يعرف الآن لغة العلامات فذهب إلى مخدومه وقال له :

– يجب أن نقدم الشاى للاشخاص الذين يصعدون حتى هنا .

–يوجد هنا كثير من الأماكن التى يمكن فيها شرب الشاى .

– ولكن يمكننا أن نقدمه فى أكواب من الكريستال . سيتذوق الناس الشاى بهذه الطريقة وسيرغبون فى شراء الكريستال ، لأن ما يغرى الناس حقا هو الجمال .

نظر التاجر إلى عامله فترة دون أن يقول شيئا ، ولكنه في ذلك المساء نفسه بعد أن أدى صلاته وأغلق المحل ، جلس على الرصيف ودعاه إلى أن يدخن معه النرجيلة ، ذلك الغليون العجيب الذى يدخنه العرب ، ثم سأل تاجر الكريستال العجوز الشاب :

– ما الذى تسعى وراءه ؟

– قلت لك من قبل : أحتاج إلى أن أشترى قطيعا جديدا ولهذا يلزمنى بعض المال .

وضع الرجل العجوز مزيدا من الجمر في النرجيلة ثم سحب نفسا طويلا قبل أن يقول :

– منذ ثلاثين عاما وأنا أملك هذا المحل . أعرف الكريستال الجيد من الردئ ، وأعرف أدق أسرار التجارة ، وقد اعتدت على محلى وعلى حجمه وعلى زبائنه . ولو بدأت تبيع الشاى في أكواب من الكريستال فستتوسع التجارة ، ويجب أن أغير أنا أيضا أسلوبى في الحياة .

– أو لن يكون هذا شيئا طيبا ؟

– لقد ألفت حياتى ، قبل أن تأتى أنت كنت أفكر فى أنى ضيعت عمرى فى المكان نفسه في حين أن كل أصدقائى تغيروا ، انهارت تجارتهم أو ازدهرت . وكان هذا يشعرنى بحزن شديد . أما الآن فأنا أعرف أن الأمر ليس هكذا فى الحقيقة ، وأن المحل فى الوضع نفسه الذى أردته له بالضبط ، أنا لا أريد التغيير لأننى لا أعرف كيف أتغير ، ومنذ الآن أعرف نفسى .

ولم يعرف الشاب بم يرد فاستأنف العجوز :

– لقد كنت بالنسبة لى نعمة ، وها أنا اليوم أدرك شيئا : أن كل نعمة مرفوضة تتحول نقمة . لست أنتظر من الحياة المزيد ، وأنت تغرينى على أن

ألتمس ثروات وآفاقا لم تجل بخاطرى قط . والآن إذ أعرفها ، وأعرف إمكانياتى الهائلة ، فسأشعر بتعاسة أكثر من أى وقت مضى ، لأنى أعرف أنى يمكن أن أملك كل شئ بينما أنا لا أريد .

قال الشاب لنفسه : «من حسن الحظ أننى لم أقل شيئا لبائع الفيشار» .

استمرا يدخنان النرجيلة حتى بعد أن غربت الشمس ، وكانا يتبادلان الحديث بالعربية وشعر الشاب بالرضا عن نفسه لأنه يتحدث العربية . جاء وقت كان يعتقد فيه أن شياهه يمكن أن تعلمه كل شئ فى الحياة ، لكن الشياه لا تعرف العربية . وفكر وهو يراقب التاجر دون أن يقول شيئا «لابد وأن هناك فى الحياة أشياء أخرى لا تستطيع الشياه أن تعلمها ، لأنها لا تبحث عن شئ غير الماء والغذاء . أعتقد أنها ليست هى التى تعلم ، وإنما أنا الذى أتعلم» .

وأخيرا قال التاجر :

– مكتوب .

– ما معنى هذه الكلمة ؟

– لابد وأن تكون قد ولدت عربيا لكى تفهمها ، ترجمتها لا تعنى شيئا . تعنى أنه شئ مدون .

وبينما كان يطفئ جمر النرجيلة قال للشاب إنه يستطيع أن يبدأ فى تقديم الشاى للزبائن فى أكواب الكريستال .

فى بعض الأحيان يكون من المستحيل أن تسيطر على نهر الحياة .

* * *

كان الناس يتسلقون الطريق الصاعد ويصلون إلى أعلاه مجهدين فيجدون في قمة ذلك المرتفع محلا لقطع الكريستال الجميلة ، وشايا منعشا بالنعناع . وحين يدخلون لشرب الشاى يقدم لهم في أكواب بديعة من الكريستال . عندئذ قال واحد منهم «لم تطرأ هذه الفكرة أبدا على ذهن زوجتى» ، ثم اشترى بضعة أكواب من الكريستال لأن لديه ضيوفا في تلك الليلة وسيبهرهم ثراء تلك الأكواب . وأكد زبون آخر أن الشاى يكون مذاقه أفضل عند تقديمه في أكواب من الكريستال ، لأنها تحافظ على نكهته . وقال زبون ثالث إن العادة في المشرق هى استخدام الكريستال لتقديم الشاى بسبب خواصه السحرية .

وهكذا انتشر الخبر خلال فترة وجيزة وقصد أناس إلى الصعود حتى قمة المرتفع ليتعرفوا على المحل الذى استحدث هذه الطرفة في تجارة بمثل هذا القدم ، وافتتحت محلات أخرى راحت بدورها تقدم الشاى فى أكواب من الكريستال ولكنها لم تكن فى قمة طريق صاعد ، فظلت خاوية باستمرار .

وسرعان ما اضطر التاجر إلى تعيين عاملين جديدين وإلى أن يستورد مع الكريستال في الوقت نفسه كميات كبيرة من الشاى الذى راح يشربه يوما بعد يوم عدد متزايد من الرجال والنساء العطشى دائما إلى الأشياء الجديدة .

وهكذا مرت ستة أشهر .

* * *

استيقظ الشاب قبل شروق الشمس وقد انقضى أحد عشر شهرا وتسعة أيام منذ وطئت قدماه لأول مرة أفريقيا . وكان يلبس الرداء العربى ، المصنوع من الكتان الأبيض ، الذى اشتراه خصيصا لهذه المناسبة وغطى رأسه بعمامة تحيط بها عصابة من جلد الجمل . وأخيرا انتعل صندله الجديد ، ونزل دون أن يحدث أى صوت .

كانت المدينة لا تزال نائمة ، صنع لنفسه شطيرة بالسمسم وشرب شايا ساخنا في كوب من الكريستال ، ثم جلس أمام عتبة المحل وبدأ يدخن النرجلية وحيدا .

راح يدخن فى صمت ، دون أن يفكر فى شئ ، ودون أن يسمع شيئا غير الهزيم المستمر للرياح التى تجلب رائحة الصحراء ، . وعندما انتهى وضع يده فى جيبه وظل لحظة يتأمل ما أخرجه منه . كان مبلغا كبيرا من المال ، يكفى لشراء مائة وعشرين خروفا ، وتذكرة العودة ، وترخيصا بالتصدير والاستيراد ما بين بلده والبلد الذى يوجد فيه .

انتظر فى صبر إلى أن استيقظ العجوز بدوره وجاء ليفتح المحل ، ثم ذهبا ليشربا الشاى معا . قال الشاب :

– اليوم سأذهب . معى ما يلزم من المال لشراء الخراف ، وأنت معك ما يكفي لكى تذهب إلى مكة .

لم يقل العجوز شيئا ، فألح الشاب :

– أريد أن تمنحنى بركتك ، فأنت الذى ساعدتنى .

واصل العجوز إعداد الشاى فى صمت ، ثم التفت نحو الشاب بعد فترة وقال له :

– أنا فخور بك ، فقد بعثت روحا فى هذا المحل للكريستال .

ولكنى لن أذهب إلى مكة وأنت تعرف هذا جيدا ، تماما كما تعرف أنك لن تشترى أى خراف من جديد .

سأله الشاب مصعوقا :

– من قال لك هذا ؟

– مكتوب .

قالها تاجر الكريستال العجوز ببساطة ، ثم منح الشاب بركته .

* * *

ذهب الشاب إلى غرفته وجمع كل ما يخصه فملأ ثلاث حقائب يدوية كبيرة ، وانتبه قبيل مغادرته بالضبط إلى جرابه القديم ، جراب الراعى ، ملقى فى ركن من الغرفة . وجده فى حالة يرثى لها بعد أن كاد ينسى أمره، ووجد فى داخله كتابه ومعطفه .

سحب المعطف وهو يفكر فى تقديمه كهدية لأول صبى يلقاه فى الطريق فتدحرج منه على الأرض حجرا أوريم وتوميم . تذكر الملك العجوز وأدهشه أنه لم يفكر فى لقائه به منذ وقت طويل ، فقد ظل خلال سنة بأكملها يعمل دون هوادة ، لا يشغل نفسه بشئ سوى أن يكسب من المال ما يكفى لكى لا يعود إلى أسبانيا مطأطئ الرأس .

كان الشيخ قد قال له : «لا تتنكر أبدا لأحلامك وانتبه إلى العلامات .»

جمع من الأرض أوريم وتوميم ، وراوده من جديد إحساس غريب بأن الملك العجوز قريب منه . لقد ظل يعمل عملا شاقا طوال تلك السنة ، ثم أشارت العلامات إلى أن لحظة الرحيل قد جانت .

وفكر «سأرجع كما كنت بالضبط من قبل ، والشياه لم تعلمنى أن أتكلم العربية» . ومع ذلك فقد علمته الشياه أمرا لا يقل أهمية ، وهو أن هناك فى العالم لغة يفهمها الجميع ، استخدمها هو طوال ذلك الوقت لكى ينهض بمحل الكريستال ، تلك هى لغة الحماسة ، أو أن يعمل الإنسان الأشياء بحب وبعاطفة ، من أجل غاية يتمناها أو يؤمن بها . لم تعد طنجة بالنسبة له الآن مدينة غريبة ، وبالطريقة نفسها التى فتح بها هذا المكان يستطيع أن يفتح العالم . ألم يقل له الملك العجوز «عندما تريد شيئا بإخلاص فإن العالم كله يتآمر لتحقيق رغبتك» ؟ ولكن الملك العجوز لم يتكلم عن اللصوص ، ولا عن الصحارى المترامية ، ولا عن الناس الذين يعرفون أحلامهم ولكنهم لا يريدون تحقيقها . لم يقل الملك العجوز إن الهرم لا يعدو

أن يكون كومة من الحجارة وأن أى إنسان يستطيع أن يبنى كومة من الحجارة فى حديقة بيته ونسى أيضا أن يقول إنه عندما يكون لدى المرء من المال ما يكفى لكى يشترى قطيعا أكبر مما كان لديه من قبل ، فيجب عليه أن يشترى هذا القطيع .

ضم الشاب الجراب إلى حقائبه الأخرى ، ونزل السلم ، فوجد العجوز يخدم زبونين أجنبيين ، بينما كان زبائن أخرون فى المحل يشربون الشاى فى أكواب الكريستال ، وكانت تلك بداية طيبة ليوم العمل فى مثل هذا الموعد المبكر من الصباح . ولاحظ للمرة الأولى من المكان الذى كان فيه أن شعر تاجر الكريستال يشبه تماما شعر الملك العجوز .

وتذكر أيضا ابتسامة بائع الحلوى ، فى أول نهار طلع عليه فى طنجة ، عندما لم يكن لديه مأوى ولا طعام ، وذكرته هذه الابتسامة أيضا بالملك العجوز ، وفكر «كما لو كان قد مر من هنا وترك بصمته» - حتى ليظن المرء أن كلا من هذين الشخصين سنحت له الفرصة لأن يقابل الملك فى لحظة من حياته . وكان الملك قد قال إنه يظهر دائما لمن يعيش أسطورته الذاتية .

رحل دون أن يودع تاجر الكريستال . لم يكن يريد أن يبكى ، ولكنه سيأسف على تلك الفترة ، وعلى كل الأشياء الجميلة التى تعلمها فى خلالها . كان يشعر بمزيد من الثقة فى نفسه وشعر بالرغبة فى أن ينطلق فى العالم حرا .

«ولكنى سأذهب إلى الريف الذى أعرفه بالفعل وأرعى خرافى من جديد» . ولم يعد يشعر بالرضا عن قراره . كان الحلم الذى ظل يعمل من أجله سنة كاملة يفقد أهميته شيئا فشيئا . دقيقة بعد دقيقة . ربما لأن هذا ليس هو حلمه فى نهاية المطاف .

«من يدرى ربما كـان من الأفـضل أنْ يعـيش الإنســان مـثل تاجـر الكريستال ، يحلم دون أن يحقق حلمه» ، ولكنه كان يمسك في قبضتيه أوريم وتومـيم ، وبث فـيـه هذان الحـجـران قـوة الملك العـجوز وإرادته . وبمحض المصـادفة (واستدرك أو ربما كعلامة) وجد نفسه في المقهى الذى دخله فى أول يوم . لم يكن اللص هناك ، وقدم له صاحب المقـهى كوبا من الشـاى . وقال لنفسه :

«أستطيع دائما أن أصبح راعيا من جديد حين أشاء . لقد تعلمت رعى الغنم ولن أنسى أبدا كيف يكون . ولكن ربما لن تسنح لى الفرصة قط مرة أخـرى للذهاب حـتى أهرام مـصـر . كـان هناك درع من ذهب على صـدر الشيخ وكان يعرف قصة حياتى . كان ملكا وملكا عالما .»

هو الآن على مبعدة ساعتين بالكاد بالباخرة من سهول الأندلس ، ولكن بينه وبين الأهرام صـحـارى . وأدرك أنه يمكن أن ينظر للمسـألة بالطريقـة التالية أيضا :

أنَ الطريق إلى حلمه قد نقص ساعتين ، حتى ولو كان عام بأكمله قد ضاع لكى يكسب هاتين الساعتين .

«أنا أعرف تماما لماذا أريد أن أعود إلى شياهى .

فأنا أعرفها وهى لا تطلب الكثير من العمل ويمكن أن أحبها .

ولكنى لا أعرف إن كان يمكن أن أحب الصحراء ، غير أن الصحراء هى التى تحول بينى وبين كنزى وإذا لم أستطع العثور عليه فيمكننى دائما أن أرجع إلى بلدى . ثم إن الحياة أعطتنى فجأة مالا وفيرا ، وأمامى وقت كاف تماما - وإذن ، فلم لا ؟»

وشـعر فى تلك اللحظة بدفقة حماس هائلة : يستطيع دائما أن يرجع

راعيا ، يستطيع دائما أن يرجع تاجرا للكريستال . ربما كانت الحياة تخفى كنوزا أخرى ولكنها وهبته حلما متكررا ، وهذا لا يحدث للناس جميعا .

كان راضيا تماما حين خرج من المقهى . وتذكر أن واحدا من موردى الكريستال للتاجر كان يجلب الكريستال عن طريق القوافل التى تعبر الصحراء . احتفظ فى قبضتيه بأوريم وتوميم ، وها هو يرجع مرة أخرى بفضل هذين الحجرين إلى طريق الكنز .

لن يخسر شيئا إذا ما ذهب حتى (الشادر) ليسأل إن كانت الأهرام بعيدة بالفعل إلى هذا الحد .

* * *

كان الإنجليزى يجلس داخل المبنى الذى تفوح فيه رائحة الماشية والعرق والغبار ، وكان من الصعب تسمية ذلك المكان (شادرا) ، فهو لم يكن أكثر من حظيرة للمواشى وقال لنفسه «أقضى حياتى كلها لأنتهى بالمرور من مثل هذا المكان ! ، وأخذ يتصفح شاردا مجلة متخصصة فى الكيمياء ، «عشر سنوات من الدراسة لكى أجد نفسى فى حظيرة مواش» !

ولكن يجب الاستمرار . يجب أن يصدق العلامات . فقد تركزت كل حياته، وكل دراساته على البحث عن لغة واحدة يتكلمها العالم . وفى البدء انصب اهتمامه على لغة الاسبرانتو ، ثم على الأديان ، وانتهى به المطاف إلى السيمياء . كان يعرف التحدث بالاسبرانتو ، ويفهم بدقة مختلف الأديان، ولكنه لم يصبح سيميائيا بعد . نجح دون شك فى حل رموز أشياء مهمة ، ولكن أبحاثه وصلت إلى النقطة التى لا يمكنه أن يتجاوزها . وحاول دون نجاح أن يقيم علاقة مع أى سيميائى كان . غير أن السيميائيين قوم غرباء ، لا يفكرون إلا فى أنفسهم ودائما ما يحجبون مساعدتهم . ومن يدرى - لعلهم قد فشلوا فى اكتشاف سر «العمل الكبير» - أى حجر الفلاسفة - وربما يكون هذا هو سبب اعتزالهم ملتزمين الصمت.

لقد أنفق حتى الآن جزءا كبيرا من الثروة التى خلفها له أبوه فى سعى لا جدوى منه وراء حجر الفلاسفة . تردد على أفضل المكتبات فى العالم . واشترى أهم الأعمال عن السيمياء وأندرها . واكتشف فى واحد منها أن سيميائيا عربيا شهيرا زار أوربا قبل عدة سنوات . قيل أن عمره نيف على مائتى عام وإنه قد اكتشف حجر الفلاسفة وإكسير الحياة .

وأثرت هذه القصة فى الإنجليزى تأثيراً كبيراً، ولكنها كانت ستبقى محض خرافة، ضمن خرافات أخرى كثيرة، لولا أن واحدا من أصدقائه عاد من بعثة أثرية فى الصحراء وحدثه عن رجل عربى خارق القدرات. قال له:

«هو يعيش فى واحة الفيوم (*) ويقول الناس إن عمره مائتا عام وأنه يستطيع أن يحول أى معدن إلى ذهب».

ثارت لهفة الإنجليزى وانفعل انفعالاً لا حدود له. فألغى على الفور كل ارتباطاته السابقة، ثم جمع أهم كتبه، وها هو الآن فى داخل ذلك المستودع الذى يشبه حظيرة ماشية، فى حين تستعد قافلة كبيرة فى الخارج لكى تعبر الصحراء.

ولابد لهذه القافلة أن تعبر الفيوم.

فكر الإنجليزى «من المحتم أن أقابل ذلك السيميائى اللعين».

خفت حدة رائحة الماشية قليلاً وأصبحت أكثر احتمالا.

ودخل شاب عربى محمل هو أيضاً بحزم كثيرة إلى المبنى الذى يجلس فيه الإنجليزى ووجه له التحية، ثم سأله:

- إلي أين أنت ذاهب؟

- إلى الصحراء.

هكذا رد الإنجليزى ثم عاد إلى القراءة. لم تكن لديه رغبة فى تلك اللحظة فى تبادل الحديث. كان بحاجة إلى أن يسترجع كل ما تعلمه خلال عشر سنوات، لأن السيميائى سيفرض عليه دون شك نوعاً من الاختبار.

أمسك العربى الشاب بكتاب وراح يقرأ بدوره. كان الكتاب بالأسبانية ففكر الإنجليزى: هذه فرصة فهو يتكلم الاسبانية أفضل من العربية، وإذا كان هذا الفتى ذاهبا حتى الفيوم فسيجد شخصاً يتحدث إليه عندما لايكون مشغولا بأمور مهمة..

* * *

(*) سيلاحظ القارىء فيما يلى أن «الفيوم» هنا واحة أسطورية شأن الرواية كلها. (المترجم)

فكر الشاب وهو يحاول مرة أخرى أن يقرأ مشهد الدفن الذى تبدأ به الحكاية «هذا شئ ظريف مع ذلك. مضى عامان تقريباً منذ بدأت قراءة هذا الكتاب ولكنى لا أستطيع أن أمضى إلى أبعد من هذه الصفحات». لم يستطع التركيز رغم أنه لم يكن هناك ملك ليقاطعه. كان لايزال متردداً فى شأن قراره. ولكنه أدرك الآن شيئاً مهما: أن القرارات لا تمثل سوى بداية شئ ما، وأن الإنسان عندما يتخذ قراراً فإنه يقذف بنفسه فى الواقع فى خضم تيار عارم يلقى به إلى مصير لم يتوقعه قط، ولا حتى في الأحلام، فى اللحظة التى اتخذ فيها هذا القرار.

«عندما أخترت أن أمضى للبحث عن كنزى لم أتصور أبداً أن أشتغل فى محل للكريستال، وبالمثل فإن هذه القافلة قد تكون قراراً اتخذته ولكن نهايتها تظل سراً».

كان أمامه شخص أوروبى يقرأ بدوره فى كتاب. شخص منفر رمقه بطريقة فيها احتقار عندما دخل. كان من الممكن أن يصبحا صديقين ولكن الأوروبى صده على الفور.

أغلق الشاب كتابه. لم يشأ أن يفعل شيئاً يمكن أن يخيل إلى أى إنسان أن هناك وجه شبه بينه وبين هذا الأوروبى. سحب من جيبه أوريم وتوميم وبدأ يعبث بهذين الحجرين.

أطلق الغريب صيحة «أوريم وتوميم»!

بادر الشاب بوضع الحجرين فى جيبه قائلا: ليسا معروضين للبيع.

– هما لا يساويان كثيراً، فهما من بلور صخرى لا أكثر، وهناك ملايين من البلورات الصخرية على سطح الأرض، ولكن هذين لمن يعرفهما هما أوريم وتوميم. لم أكن أعرف أنهما يوجدان فى هذه المنطقة.

– لقد أهدانى إياهما ملك.

ظل الغريب صامتا، ثم وضع يده في جيبه وأخرج منه بيد مرتعشة حجرين مطابقين لما معه وهو يقول:

– أنت تحدثت عن ملك.

– ولكنك لن تصدق أن ملكا يمكن أن يتحدث إلى را ع. قالها الشاب وهو يرغب من جانبه فى هذه المرة وضع حد للحوار، ولكن الغريب قال:

– بالعكس تماما .. لا غرابة فى أن يتحدث الملوك إلى الرعاة .

عندها شعر الشاب بالسعادة لوجوده في هذا المكان. وقال الإنجليزى وكأنه يفكر بصوت عال:

– ربما تكون هذه علامة.

– من حدثك عن العلامات؟

كانت لهفة الشاب تتزايد من دقيقة إلى أخرى.

أغلق الإنجليزى المجلة التى كان يقرؤها وقال:

– كل شئ فى الحياة علامة. العالم كله تشمله لغة واحدة يستطيع كل الناس فهمها، ولكنهم نسوها. وأنا أبحث عن هذه اللغة العالمية ضمن أشياء أخرى. هذا هو السبب فى أني هنا، لأنى يجب أن أقابل رجلا يعرف هذه اللغة العالمية وهو سيميائى.

أنقطع الحديث بدخول شخص عربى بدين إلى المستود ع قال:

– أنتما محظوظان كلاكما. سترحل قافلة عصر اليوم إلى الفيوم.

قال الشاب : ولكنى أريد أن أذهب إلى مصر.

رد عليه العربى البدين:

– والفيوم فى مصر، أنت تبدو عربيا غريبا يا أخ!

قال الفتى إنه إسبانى، فشعر الإنجليزى بالسعادة– مع أنه يتزيا كعربى فهو على الأقل أوروبى.. قال الإنجليزى عندما انصرف الرجل:

- هو يسمي العلامات «حظا»، ولو استطعت لكتبت دائرة معارف ضخمة عن كلمتى «حظ» و«مصادفة» فبهاتين الكلمتين تكتب لغة العالم.

ثم واصل الحديث قائلا للشاب إنها لم تكن مصادفة أن رآه وفى يده حجرا أوريم وتوميم، وسأله إن كان هو أيضاً يسعى لمقابلة السيميائى.

رد الشاب: أنا أسعى للبحث عن كنز.

ثم شعر بالندم على الفور، ولكن لم يبد على الإنجليزى أنه أولى اهتماما لما سمعه وقال:

- وأنا أيضاً على نحو ما.

- وأنا لا أعرف حتى ما هى السيمياء.

قالها الشاب فى اللحظة التى دخل فيها رئيس «الشادر» ودعاهما إلى الخروج.

* * *

قال رجل طويل اللحية أسود العينين:

– أنا رئيس القافلة، ولي حق الحياة والموت على كل من أقودهم. لأن الصحراء امرأة متقلبة تبعث في الرجال الجنون أحيانا.

كان هناك ما يقرب من مائتي شخص وضعف عددهم من الدواب. كانت هناك جمال وخيول وبغال وطيور، وهناك نساء، وهناك بعض رجال يحملون سيوفا في خواصرهم أو بنادق طويلة على أكتافهم. واصطحب الإنجليزى معه عدة حقائب مكدسة بالكتب. سادت المكان جلبة صاخبة واضطر الرئيس إلي أن يعيد كلمته عدة مرات ليفهمها الجميع. قال «يوجد هنا أناس من شتى المشارب يؤمنون فى قلوبهم بآلهة مختلفة، أما أنا فإلهى الواحد هو الله وأنا أقسم بالله أن أفعل كل ما أستطيع، وبأفضل ما أستطيع، لكى أقهر هذه الصحراء مرة أخرى، أريد فقط من كل منكم أن يقسم بالإله بالذى يؤمن به، ومن أعماق قلبه، بأنه سيطيعنى فى كل الظروف. ففي الصحراء لا يعنى العصيان إلا الموت.

سرت فى الجمع همهمة خافتة، وأقسم كل بصوت خفيض مشهدا إلهه. أقسم الشاب بالمسيح، ولزم الإنجليزى الصمت. وطالت الهمهمة لمدة أكثر مما يستغرقه قسم عادى. إذ كان الناس يلتمسون أيضاً حماية السماء.

وانطلق صوت نفير ظل يدوى طويلاً، وامتطى كل شخص دابته. كان الشاب والإنجليزى قد اشتريا جملين ووجدا صعوبة فى حفظ توازنهما فوق مطيتيهما. وشعر الفتى بشئ من الاشفاق على جمل الإنجليزى المثقل بحمولة باهظة من الكتب.

قال الإنجليزى محاولا أن يستأنف الحديث الذى بدأه فى «الشادر»، «لا توجد مصادفات. هناك صديق هو الذى جعلنى آتى حتى هنا لأنه يعرف عربيا ....».

ولكن القافلة بدأت تتحرك، وأصبح من المستحيل سماع ما يقول. ومع ذلك فقد فهم الشاب المغزى تماماً: هو يعنى تلك السلسلة الغامضة التى تربط كل شئ بسواه، والتي قادته منذ كان راعيا حتى عمل عند بائع الكريستال.

وفكر «كلما اقترب الإنسان من حلمه، أصبحت الاسطورة الذاتية مبرر الحياة الحقيقى».

سارت القافلة فى اتجاه الشرق. كانت تتحرك فى الصباح وتتوقف عندما تحمى وقدة الشمس ثم تستأنف المسير عندما تميل الشمس نحو الغرب. ولم يتحدث الشاب كثيراً مع الإنجليزى الذى كان يقضى معظم الوقت غارقا فى مطالعة كتبه.

ثم استغرق فى مراقبة موكب الدواب والبشر عبر الصحراء. أصبح كل شئ يختلف تماماً عما كان عليه فى يوم الرحيل. يومها كان الزحام والصياح وبكاء الأطفال، والصهيل والخوار. ووسط كل تلك الفوضى. أصوات الأوامر العصبية للأدلاء والتجار.

أما فى الصحراء فلم يكن ثمة شئ غير الرياح الأبدية. والصمت، وخبب أقدام الدواب. حتى الأدلاء نادراً ما كانوا يكلمون بعضهم بعضاً.

وقال أحد حداة الجمال ذات ليلة «لقد عبرت بحار الرمال هذه عدة مرات، ولكن الصحراء مترامية الأطراف، نائية الآفاق تشعر الإنسان بضآلته وتلزمه الصمت».

وفهم الشاب ما أراد حادى الجمال أن يقوله، مع أنه لم يخض من قبل غمار أية صحراء، ولكنه فى كل مرة كان يرقب فيها البحر أو النار، كان يمكنه أن يقضى ساعات دون أن ينبس بكلمة، مستغرقا فى اللا نهاية وفى سطوة العناصر.

وفكر «لقد تعلمت مع الشياه وتعلمت مع الكريستال، ويمكنني أيضاً أن أتعلم مع الصحراء، فهي تبدو أعرق وأكثر حكمة».

ولم تتوقف الرياح أبدا وتذكر يوم شعر بتلك الرياح نفسها في تاريفا، حين كان يجلس فوق سور الحصن. ولعل الرياح الآن تمسد صوف شياهه التي تجوب ربوع الأندلس. وقال لنفسه «هي لم تعد شياهي!». ولم يشعر بحنين حقيقي. «لابد أن تكون قد اعتادت على راع جديد ونسيتني، ولا بأس بهذا أبدا. فمن يعتاد على الترحال مثل الشياه. يعرف أنه يصل دائماً إلى لحظة لابد فيها من الفراق».

ثم تذكر ابنة التاجر واستقر لديه يقين بأنها لابد أن تكون قد تزوجت. لعله يكون بائع الفيشار أو راعيا يعرف القراءة ويستطيع أن يقص عليها حكايات مثيرة. فهو ليس الوحيد بكل تأكيد. ولكن هذا الحدس الذي واتاه بعث في نفسه القلق. أيكون إذن في طريقه لأن يتعلم بدوره تلك اللغة الكونية الشهيرة التي تعرف ماضي البشر جميعا وحاضرهم؟ كانت أمه تقول دائماً «حدسي» وبدأ يفهم أن لحظات الحدس هي غوص سريع للروح في تيار الحياة الكوني الذي يترابط في طياته تاريخ البشر جميعاً بطريقة توحد الكل، بحيث نستطيع أن نعرف كل شئ لأن كل شئ مدون.

– مكتوب!

قالها وهو يفكر في تاجر الكريستال.

كانت الصحراء تنبسط في بعض الأحيان رمالاً، وفي أحيانا أخرى في شكل حجارة وعندما كانت القافلة تصل إلى أرض من الحجارة كانت تدور حولها، فإن كانت كتلة من الصخور تحتم القيام بدورة كبيرة. وعندما تصادف القافلة رمالاً ناعمة للغاية تغوص فيها أخفاف الجمال، كانت تبحث عن معبر أكثر صلابة. وفي بعض الأحيان كانت الأرض مغطاة بالملح في

موضع بحيرة مندثرة. كانت الجمال تقاسى فينزل الحداة لمساعدتها. ينقلون أحمالها فوق ظهورهم إلى أن يعبروا الممر الصعب. ثم يعيدون تحميل الجمال. وعندما يسقط واحد من الأدلاء مريضاً أو ميتا، يجرى الحداة قرعة لاختيار من يحل محله.

ولم يكن لكل لهذا سوى سبب واحد، فلم يكن يهم فى شئ عدد المرات التى ينحرف فيها مسار القافلة طالما أنها تتجه إلى الهدف نفسه. وعندما كانت تتغلب على العقبة التى تواجهها. فإنها تجد مرة أخرى النجم الذى يهدى مسيرتها إلى اتجاه الواحة. وعندما يرى الناس هذا النجم وهو يلمع فى سماء الفجر. يعرفون أنه يدلهم إلي حيث توجد النساء والماء والنخيل والبلح. الإنجليزى وحده هو الذى لم يلاحظ شيئاً من هذا كله: ظل معظم الوقت منهمكا فى قراءة كتبه.

كان مع الشاب كتاب أيضاً حاول أن يقرأ فيه خلال الأيام الأولى من الرحلة، ولكنه وجد متعة أكبر فى مراقبة القافلة والاصغاء إلى الرياح. وبمجرد أن تعلم السيطرة على جمله بشكل أفضل وبدأ يتعلق به رمى بكتابه. كان الكتاب وزنا زائداً عن الحاجة. ومع ذلك فقد وسوست له نفسه بأنه فى كل مرة فتح فيها هذا الكتاب التقى بشخص مهم.

وانتهى به الأمر بأن عقد صداقة مع حادى الجمال الذى كان يحاذيه باستمرار، والذى كان يحدثه عن حياته، قال: «أنا أسكن ناحية بالقرب من القيروم «كذا!» وكان لى بيتى وأطفالى وحياة مستقرة ما كان لها أن تتغير حتى أموت. وفى سنة من السنوات كان المحصول أفضل من المعتاد، فسافرنا جميعاً إلي مكة وأديت الفريضة الوحيدة التى كانت تنقصنى فى ذلك الحين، كان بوسعى بعدها أن أموت مطمئنا وأسعدنى هذا.

وذات يوم بدأت الأرض تهتز وفاض النيل محطما جسوره. وحدث لى ما

كنت أعتقد أنه لا يحدث إلا للآخرين. خشى جيرانى من أن يفقدوا بساتين الزيتون بفعل الفيضان، وخشيت زوجتى من أن تجرف المياه أطفالنا. وخفت أنا من أن أفقد كل ما بنيت فى حياتى.

ولكن ما وقع لم يكن له علاج، ولم تعد الأرض تصلح للزرع وتحتم على أن أجد وسيلة أخرى للعيش، وها أنذا اليوم حادٍ للجمال، ولكنى استطعت أيضاً أن أفهم حكمة الله: لا ينبغى لانسان أن يخشى من المجهول، لأن بوسع كل إنسان أن يغير حياته وأن يحصل على ما يلزمه.

كل ما نخشاه هو آن نفقد ما نملك، سواء كان حياتنا أو زرعنا، ولكن هذا الخوف يزول عندما نفهم أن حياتنا وحياة العالم قد خطتهما معاً يده سبحانه.

* * *

في بعض الأحيان كانت القوافل تتلاقى عندما يهبط الليل، ودائماً ما كان لدى إحدى القوافل ما تحتاج إليه قافلة أخرى، مصداقا لأن كل شئ قد خطته يده سبحانه. وكان حداة الجمال يتبادلون المعلومات عن عواصف الرمال ويجتمعون حول ركيات النار ليحكوا قصصا عن الصحراء.

وفي أحيان أخرى كان يصل رجال غامضون ملثمو الوجوه، وأولئك هم البدو الذين يحرسون طريق مرور القوافل. وكانوا يقدمون معلومات عن قاطعي الطرق وعن القبائل المتمردة. وقد اعتادوا أن يصلوا في صمت وأن يرحلوا في صمت متدثرين بجلابيبهم القاتمة وأغطية الرءوس التي لا تبرز غير عيونهم.

وبينما كان هناك اجتماع من تلك الاجتماعات الليلية أنضم حادي الجمال إلى الشاب والإنجليزي أمام ركية نار كانا يتحلقان حولها وقال حادي الجمال:

– هناك شائعات بنشوب حرب بين العشائر. لزم الرجال الثلاثة الصمت، ولاحظ الشاب الأسباني أن نوعا من الخوف قد ساد وإن لم ينطق أحد بكلمة. وبعد برهة سأل الإنجليزي عما إذا كان هنا خطر؟.. فرد الحادي:

– من يغامر بدخول الصحراء لا يمكن أن يرجع أدراجه. ومادام التقهقر مستحيلا، فلا يجب الانشغال بشئ سوى بأفضل طريقة للتقدم. والباقي بيد الله، بما في ذلك الخطر.

ثم أنهى كلامه بتلك الكلمة السحرية: مكتوب!

وبعد أن انصرف الحادي قال الشاب للإنجليزي:

– ينبغي أن تولي اهتماما أكبر للقافلة، فهي تنحرف كثيراً عن مسارها ولكنها تتجه دائماً إلي النقطة نفسها.

فرد الإنجليزي:

– وأنت ينبغى أن تقرأ كتبا أكثر عن الدنيا– فالكتب كالقوافل تماماً.

منذ ذلك الحين بدأت القافلة الطويلة من الرجال والدواب تتقدم بسرعة أكبر. ولم يعد الصمت يسود فى النهار وحده، بل شمل الليل أيضاً، فى الساعة التى اعتاد فيها الرجال على التجمع للثرثرة حول النار، وأخذ يفرض نفسه شيئاً فشيئاً. وذات يوم قرر رئيس القافلة ألا يضئ ناراً بعد ذلك فى الليل لكى لا يجذب الانتباه.

واقتصر المسافرون بعد ذلك على النوم فى داخل دائرة مكونة من الدواب، لمحاولة التماس الدفء من برد الليل، ووزع رئيس القافلة أيضاً بعض الحرس المسلحين حول مضرب القافلة.

وذات ليلة من تلك الليالى جفا النوم الإنجليزى، فذهب يبحث عن الاسبانى الشاب وراحا يتمشيان معاً عند الكثبان القريبة. كانت ليلة اكتمل فيها القمر بدراً، وحكى الشاب حكايته كلها للإنجليزى.

أبدى الإنجليزى اهتماما خاصاً بفترة العمل فى المحل الذى أخذ يزدهر يوما بعد يوم طوال الفترة التى عمل فيها الشاب، وقال له:

– ذلك هو المبدأ الذى يشمل كل شئ والذى تسميه السيمياء روح العالم، فعندما تريد شيئا من كل قلبك فإنك تقترب من روح العالم، وتلك قوة إيجابية على الدوام.

ثم قال إن تلك ليست ميزة للبشر وحدهم فكل شئ فى الوجود له روح أيضاً سواء كانت نباتا أو حيوانا أو جماداً أو مجرد فكرة وأكمل.

– كل ما فى باطن الأرض أو فوقها لا يكف عن التجول، لأن الأرض كائن حى ولها روح، ونحن نادراً ما نعرف أن هذه الروح تعمل لصالحنا،

ولكنك يجب أن تعرف أن المزهريات ذاتها في محل الكريستال كانت تعمل لنجاحك.

أخذ الشاب يراقب القمر والرمال البيضاء ملتزما الصمت لفترة. ثم قال في النهاية:

- لقد راقبت القافلة التي تشق الصحراء، وهي تتكلم اللغة نفسها مع الصحراء، وهذا هو السبب في أنها تسمح لها بأن تقطعها، وهي لا تكف عن اختبار كل خطوة من خطاها لكي تختبر ما إذا كانت الخطى في انسجام تام معها أم لا؟ فإن كانت هذه هي الحال بالفعل فستصل القافلة إلي الواحة. ولكن إن عجز أحدنا رغم كل ما أوتي من شجاعة عن أن يفهم هذه اللغة فإنه يموت منذ اليوم الأول.

ظلا يتأملان أشعة القمر معا لفترة، ثم تابع الشاب:

- ذلك هو سحر العلامات، لقد رأيت كيف يقرأ أدلاؤنا العلامات في الصحراء وكيف تتحاور روح القافلة مع روح الصحراء.

وبعد لحظة جاء الدور على الإنجليزي ليتكلم فقال في النهاية:

- يجب بالفعل أن أعطي اهتماما أكبر للقافلة.

ورد الشاب:

- وأنا يجب أن أقرأ كتبك.

* * *

كانت كتباً غريبة بالفعل، تتحدث عن الزئبق والملح والتنين والملوك، ولكنه لم يفهم منها شيئاً البتة. ومع ذلك فقد كانت هناك فكرة تتكرر باستمرار فى الكتب جميعاً، فكرة أن كل الأشياء هى تجليات لشئ واحد.

واكتشفت فى واحد من الكتب أن أهم نص فى السيمياء مكتوب على زمردة بسيطة. وشرح له الإنجليزى، مزهوا بأن يعلم صاحبه شيئاً:

– ذلك هو جدول الزمرد.

– فما الحاجة إذن إلى كل هذه الكتب؟

– لكى تتمكن من فهم هذه السطور القليلة.

ولم يبد على الإنجليزى نفسه أنه مقتنع بتلك الإجابة.

وكان الكتاب الذى أثار أكبر اهتمام لدى الشاب هو الذى يحكى قصص مشاهير السيميائيين.

كانوا رجالاً أنفقوا عمرهم كله فى تنقية المعادن فى مختبراتهم، واعتقدوا أن الإنسان إذا ما استمر يصهر معدنا ما لسنوات وسنوات، فإن هذا المعدن ينتهى بالتخلص من كل خواصه المعروفة، ولا يبقى بعد ذلك مكانها سوى روح العالم، ومن شأن هذا الشئ الفريد أن يسمح للسيميائيين بفهم كل ما يوجد على سطح الأرض، لأنه اللغة التى تتواصل عن طريقها الأشياء فيما بينها، وهذا الاكتشاف الذي يسمونه «العمل الكبير» مكون من جزء سائل وجزء صلب.

وسأل الشاب:

– ألا تكفى مراقبة البشر والعلامات للوصول إلى هذه اللغة.

فرد الإنجليزى مغضباً:

– أنت مهووس بالرغبة فى التبسيط: السيمياء عمل جاد ومن المحتم اتباع كل مرحلة من مراحل العملية كما أوصى بذلك الأساتذة.

واكتشف الشاب أن الجزء السائل من العمل الكبير يسمى إكسير الحياة، وأن هذا الإكسير لا يشفي من الأمراض فحسب. بل يحجب الشيخوخة أيضاً عن السيميائى. أما الجزء الصلب فيسمونه حجر الفلاسفة. وقال له الإنجليزى:

– ليس من السهل اكتشاف حجر الفلاسفة. لقد قضى السيميائيون فى مختبراتهم سنوات عديدة يراقبون تلك النار التى تنقى المعادن. ومع طول تحديقهم فى النار كان يتسرب إلي أعماق قلوبهم شيئاً فشيئا زهد فى كل أباطيل الأرض، إلى أن وصلوا ذات يوم إلى إدراك أن تنقية المعدن قد نقّت أرواحهم هم فى واقع الأمر.

عندئذ تذكر الشاب تاجر الكريستال الذى قال له إن تنظيف المزهريات كان شيئاً طيباً، لأن ذلك قد خلصهما هما الاثنين من الأفكار السيئة. وازداد اقتناعه بأنه لابد أن يكون من الممكن تعلم السيمياء من الحياة اليومية، وواصل الإنجليزى:

– وبالإضافة إلى ذلك فإن لحجر الفلاسفة خاصية فريدة تماما. إذ تكفى شذرة منه لتحويل كميات كبيرة من معدن خسيس إلى ذهب.

ومنذ تلك اللحظة تزايد اهتمام الشاب بالسيمياء بدرجة كبيرة. وفكر أنه يستطيع بقليل من الصبر أن يحول كل شئ إلى ذهب. قرأ سير مختلف الشخصيات التى وقع عليها هيليفينيوس وايلى وفولكانيللى وجيبير. كانت قصصا رائعة. فقد عاشوا جميعاً أسطورتهم الذاتية حتى غايتها: سافروا وقابلوا علماء وصنعوا معجزات تحت أعين المكذبين، وحازوا حجر الفلاسفة واكسير الحياة.

ولكن عندما حاول الشاب أن يعرف بدوره طريقة انجاز «العمل الكبير» وجد نفسه فى طريق مسدود. فلم تكن هناك غير رسوم وطلاسم ونصوص

غامضة وذات ليلة سأل الإنجليزى:

– لماذا يستخدمون لغة تصعب على الفهم إلى هذا الحد؟

ولاحظ من جهة أخرى فى تلك المناسبة أن الإنجليزى كان مزاجه سيئاً للغاية كما لو كان يفتقد هذه الكتب، ورد عليه قائلا:

– هذا لكى لا يفهم سوى من يكون مسئولا بما فيه الكفاية ليستحق الفهم. تخيل للحظة أن كل الناس بدأوا يحولون الرصاص إلى ذهب. بعد قليل جداً من الوقت لن يساوى الذهب شيئاً. العقول الجبارة وحدها والباحثون ذوو العزم هم الذين يستطيعون انجاز العمل الكبير. وهذا هو سبب وجودى وسط هذه الصحراء، لأنى أريد أن أقابل سيميائياً حقيقياً يساعدنى على فك الرموز.

– ومتى كتبت هذه الكتب؟

– منذ عدة قرون.

– فى ذلك الوقت لم تكن المطبعة قد اخترعت بعد، وكان من المستبعد تماما أن يصل الناس جميعاً إلى معرفة السيمياء. فلماذا إذن هذه اللغة الغريبة وكل هذه الأرقام؟

ورغم كل هذا الإلحاح لم يجب على السؤال: قال إنه يراقب القافلة باهتمام منذ عدة أيام وإنه لم يكتشف أى جديد. ولم يلاحظ غير شئ واحد، وهو تواتر الحديث عن الحرب.

* * *

ذات يوم أعاد الشاب إلى الإنجليزى كتبه. فسأله متلفها:

- وإذن فهل تعلمت الكثير؟

كان الإنجليزى فى حاجة إلى شخص يبادله الحديث لينسى الخوف من الحرب. قال الشاب:

- لقد تعلمت أن للعالم روحاً وأن من يستطيع فهم هذه الروح يمكنه أن يفهم لغة الأشياء ؛ وتعلمت أن كثيرا من السيميائيين عاشوا أسطورتهم الذاتية ، وأنهم انتهوا إلى اكتشاف روح العالم وحجر الفلاسفة وإكسير الحياة ، ولكنى تعلمت بوجه خاص أن هذه الأشياء من البساطة بحيث يمكن حفرها على سطح زمردة .

أصابت الإنجليزى خيبة أمل ، إذ لم تستوقف هذا الصبى سنوات الدراسة ولا الرموز السحرية ولا الكلمات الصعبة التى يلزم فهمها ، ولا أجهزة المختبرات .

قال لنفسه لابد أنه من بلادة الحس ، بحيث يعجز عن استيعاب هذه الأشياء .

ثم أخذ كتبه ووضعها فى كيس معلق على ظهر الجمل وقال له :

- إرجع إلى قافلتك ، فهى أيضا لم تعلمنى الكثير .

عكف الشاب على تأمل صمت الصحراء الرهيب والرمال التى تثيرها الدواب أثناء سرها .

وكرر لنفسه «لكل إنسان طريقته فى التعلم ، وطريقته ليست طريقتى ، ولكن كلينا يسعى وراء أسطورته الخاصة ولهذا فأنا أحترمه» .

* * *

كانت القافلة تصل فى مسيرها الليل بالنهار ، وأخذ يظهر فى كل لحظة رسل ملثمو الوجوه ، وشرح حادى الجمال الذى أصبح صديقا للشاب أن حرب القبائل قد بدأت .

ولو أنهم نجحوا فى الوصول إلى الواحة فسيكون الحظ حليفهم .

كانت الدواب مجهدة ، وازداد الرجال صمتا على صمت ، وبات الصمت أكثر رهبة فى الليل عندما يجأر جمل (وما كان من قبل أكثر من مجرد جمل يجأر) فيبث الخوف فى نفوس الجميع :

فقد تكون تلك علامة على هجوم وشيك .

ومع ذلك فلم يبد على حادى الجمال أى انفعال زائد عن الحد بسبب اقتراب خطر الحرب .

قال للشاب وهو يأكل بلحا من قبضته فى ليلة غير مقمرة لاتضيئها نيران فى المخيم .

– إننى أحيا ، وعندما آكل فأنا لا أفعل شيئا غير أن آكل . وفى ساعة المشى فسوف أمشى . هذا كل ما هنالك . وإذا ما تحتم ذات يوم قتلى فإن أى يوم يصلح كسواه للموت ، ذلك أنى لا أعيش فى الماضى ولا فى المستقبل . أنا لا أعيش سوى حاضرى ، وهو وحده الذى يعنينى . لو تمكنت من أن تعيش دائما فى الحاضر فستكون إنسانا سعيدا .

ستفهم أنه توجد فى الصحراء حياة ، وفى الماء نجوم ، وأن المحاربين يتقاتلون لأن ذلك شىء متأصل فى حياة البشر .

وعندما تفهم ذلك تصبح الحياة عيدا ومهرجانا عظيما – لأنها بالضبط هى اللحظة التى نحياها ولا شىء غير ذلك .

وبعد ليلتين من ذلك وعندما كان الشاب على وشك أن ينام ، نظر إلى النجم الذى تستهدى به القافلة فى مسيرها ، فبدا له أن الأفق يهبط ، لأن سماء الصحراء كانت مبدورة بمئات النجوم .

قال له الحادى :

- تلك هى الواحة .

- ولماذا إذن لانذهب إليها توا ؟

- لأننا بحاجة إلى النوم .

* * *

فتح الشاب عينيه عندما بدأت الشمس تبزغ من الأفق ، وفى الموضع الذى كانت تبرق فيه النجوم الصغيرة فى الليل ، امتدت أمام عينيه غابة لا نهاية لها من النخيل شغلت كل الأفق فى الصحراء .

صاح الإنجليزى الذى استيقظ بدوره لتوه :

- ها نحن قد وصلنا !

ظل الشاب صامتا مع ذلك . علمته الصحراء الصمت وقنع بمراقبة النخيل المواجه له .

مازال عليه أن يقطع طريقا طويلا لكى يصل إلى الأهرام ، ولن يكون هذا الصباح بالنسبة له ذات يوم سوى ذكرى .

أما الآن فهو اللحظة الراهنة ، العيد الذى تحدث عنه حادى الجمال ؛ وهو يحاول أن يعيش تلك اللحظة مع دروس ماضيه وأحلام مستقبله .

نعم ، لن يكون منظر تلك الآلاف من النخيل ذات يوم سوى ذكرى ، ولكنه فى هذه اللحظة يعنى له الظل والماء والملجأ من الحرب .

وكما أن جملا يجأر يمكن أن يتحول إلى نذير بالخطر ، فإن غابة من النخيل يمكن أن تمثل معجزة . وفكر الشاب .

- إن العالم يتكلم بأكثر من لغة .

* * *

فكر السيميائى :

«عندما يسرع إيقاع الزمن تعجل القوافل بدورها» .

وكان يراقب لحظتها وصول مئات من الأشخاص والحيوانات إلى الواحة .

أسرع السكان يستقبلون بالصياح والتهليل الوافدين الجدد ، وثار غبار حجب شمس الصحراء ، وأخذ الأطفال يتقافزون من الانفعال لمرأى الأجانب .

راقب السيميائى رؤساء القوافل وقد تجمعوا لاستقبال رئيس القافلة ثم عقدوا معاً اجتماعا مطولا .

ولم يكن شيء من هذا كله يعنى السيميائى ، فقد استطاع أن يرى من قبل حشودا من الناس يصلون ويرحلون ، وظلت الواحة والصحراء على حالهما لا يتغيران .

رأى ملوكا وشحاذين يقطعون تلك الفيافى من الرمال التى يتغير شكلها بفعل الرياح والتى تظل مع ذلك هى نفسها كما عرفها فى طفولته .

وبالرغم من ذلك فهو لم يستطع أن يسيطر فى أعماق قلبه على قدر من ذلك الحبور الذى يشعر به كل مسافر عندما تظهر أمام عينيه بعد الأرض الصفراء والسماء اللازوردية خضرة تلك الغابة من النخيل وقال لنفسه :

ربما تكون الصحراء قد خلقت لكى يتمتع الإنسان برؤية غابات النخيل .

ثم قرر عندئذ أن يركز على المسائل العملية ، فقد كان يعرف أنه سيصل مع تلك القافلة الشخص الذى يجب أن يعلمه بعضا من أسراره .

أنبأته بذلك العلامات .وهو لم يكن يعرف ذلك الرجل حتى الآن ولكن عينيه المدربتين ستدلانه عليه فى اللحظة التى سيقع فيها عليه بصره .

وأمل أن يكون شخصا بمثل موهبة تلميذه السابق وفكر:

أنا لا أعرف لماذا يجب أن تنتقل هذا الأشياء دائما من الفم إلى الأذن . ليس الأمر هو أنها أسرار حقيقية ، فالله يكشف الأسرار بحرية لكل خلقه .

ولم يجد لهذا سوى تفسير واحد :

أن هذه الأشياء ينبغى نقلها بهذه الطريقة لأنها دون شك من حقائق الحياة الخالصة ، وهذا النوع من الحياة يصعب تجسيده فى الصور ناهيك بالكلمات .

لأن الناس يفتنون بالصور وبالكلمات فينسون فى النهاية لغة العالم .

* * *

جيء بالوافدين الجدد على الفور أمام رؤساء قبائل الفيوم . ولم يصدق الشاب عينيه فبدلاً من أن يرى بئراً يحيط بها بعض النخيل (كما قرأ وصفا ذات مرة فى كتاب للتاريخ) وجد أن الواحة أكبر بكثير من بعض القرى فى أسبانيا .

كانت تضم ثلاثمائة بئر وخمسين ألف نخلة وعدداً ضخما من الخيام الملونة الموزعة وسط النخيل .

وقال الإنجليزى المتلهف على مقابلة السيميائى فى أسرع وقت «كأننا نعيش فى ألف ليلة وليلة» .

وسرعان ما أحاط بهم أطفال راحوا ينظرون بفضول إلى الدواب والجمال وإلى الوافدين ، أما الرجال فأرادوا أن يعرفوا منهم إن كانوا قد رأوا نذر معركة ، وتنازعت النساء على الأقمشة والحلى التى جلبها التجار ، وبدا سكون الصحراء الآن حلما بعيدا ، إذ أخذ الجميع يتكلمون بلا انقطاع ، ويضحكون ، ويصيحون بأعلى أصواتهم ، حتى لكأن المرء قد ترك عالما من الأرواح الخالصة ليجد نفسه وسط البشر .

كان الناس سعداء يغمرهم الرضا . وفى مقابل الاحتياطات التى كانت مطبقة البارحة ، شرح حادى الجمال للشاب أن الواحة فى الصحراء تعتبر دائما أرضا محايدة لأن معظم من يعيشون فيها من النساء والأطفال .

وهناك واحات تقف مع جبهة أو الأخرى ولكن المحاربين يخرجون للقتال فى الصحراء ويتركون الواحات فى أمان . باعتبارها أماكن محرمة عليهم .

جمع رئيس القافلة كل أتباعه ، وإن وجد صعوبة فى ذلك ، ثم بدأ يعطيهم تعلمياته :

سيبقون هنا إلى أن تنتهى الحرب بين العشائر ، وسيتم إيواء أفراد القافلة باعتبارهم ضيوفا فى خيام سكان الواحة الذين سيقدمون لهم أفضل الأماكن ،

فتلك هى شرعة الضيافة التقليدية ، ثم طلب من الجميع ، بمن فى ذلك حراسه الخصوصيون أن يسلموا أسلحتهم إلى الرجال الذين سيحددهم رؤساء القبائل . وشرح لهم :

– تلك هى قواعد الحرب ، حتى لاتصبح الواحات ملجأ للمحاربين .

ولدهشة الشاب البالغة أخرج الإنجليزى من سترته مسدسا مفضضا أعطاه . للرجل المكلف بجمع الأسلحة ، فسأله :

– لماذا تحمل مسدسا ؟

– لكى يساعدنى على الوقوف فى وجه الآخرين .

وكان سعيداً لأنه بلغ غاية سعيه .

وفكر الشاب من جانبه فى كنزه ، فكلما ازداد اقتراباً من بلوغ حلمه ، ازدادت الأمور صعوبة .

ولم يعد لما أسماه الملك العجوز حظ المبدتئين وجود . فالأمر الآن – وهو يعلم ذلك – هو اختبار للصلابة ولشجاعة من يسعى إلى تحقيق أسطورته الذاتية . ولا مجال للتعجل أيضا ولا لنفاد الصبر ، وإلا فهو يجازف بأن تغيب عن بصره العلامات التى وضعها الله فى طريقه .

وفكر وقد أصابه إدراكه بالدهشة «إن الرب هو الذى وضع العلامات على طريقى» . وكان حتى تلك اللحظة يعتبر العلامات شيئا ينتمى إلى هذا العالم ، مثلها مثل الأكل أو النوم ، أو البحث عن الحب أو عن وظيفة – ولكنه لم يفكر أبدا فى أنها يمكن أن تكون إرشاداً من الله ليدله على ماينبغى عليه عمله .

كرر لنفسه «لاتكن قليل الصبر ، وكما قال الحادى كل عندما تحين ساعة الأكل، وفى ساعة المسير سر» .

فى اليوم الأول استسلم الجميع للنوم من الإرهاق بمن فى ذلك الإنجليزى

وكان الشاب يقيم بعيداً عنه ، فى خيمة يشغلها خمسة فتية آخرين ، كلهم من سنه تقريبا . كانوا من سكان الصحراء ، وأرادوا أن يسمعوا قصصا عن المدن الكبيرة.

حدثهم الشاب عن حياته فى الرعى ، وكان قد شرع يحكى لهم تجربته فى محل الكريستال عندما دخل الإنجليزى واصطحبه إلى الخارج وهو يقول :

– ظللت أبحث عنك طوال الصباح ، يجب أن تساعدنى فى العثور على المكان الذى يقيم فيه السيميائى .

حاولا البحث عنه أولاً بوسائلهما الخاصة ، فلابد للسيميائى أن يعيش عيشة تختلف عن غيره من سكان الواحة ، ومن المرجح أن يكون تحت خيمته فرن موقد بلا انقطاع .

وبعد أن سارا مسافة كبيرة على أقدامهم توصلا إلى أن الواحة أكبر بكثير مما تصورا ، وأنها تضم من الخيام مئات فوق مئات .

وقال الإنجليزى وهو يجلس مع صاحبه بالقرب من إحدى آبار الواحة :

– ضاع يوم بأكمله تقريبا .

– ربما كان من الأفضل أن نسأل .

ولم يكن الإنجليزى يرغب فى الإعلان عن وجوده فى الواحة ، وأبدى قدرا من التردد ، ولكنه وافق أخيرا ، وطلب من الشاب الذى يتكلم العربية أفضل منه أن يتولى المهمة .

اقترب الشاب من امرأة كانت قد جاءت تملأ قربة من جلد الخروف وقال لها :

– مساء الخير يا سيدتى ! أريد أن أعرف أين يوجد السيميائى الذى يعيش فى هذه الواحة .

قالت المرأة إنها لم تسمع عنه قط وانصرفت مسرعة .

ولكن كان لديها متسع من الوقت لكى تحذر الشاب من أنه ينبغى ألا يخاطب أبدا النساء المرتديات السواد ، لأنهن متزوجات ، وعليه أن يحترم التقاليد .

شعر الإنجليزى بخيبة أمل بالغة .

إذن فقد قطع كل هذه الرحلة عبثا ! وانتاب صاحبه الحزن أيضا ، فقد كان الإنجليزى يسعى بدوره وراء أسطورته الذاتية ، وعندما تكون هذه هى حال الإنسان فإن الكون كله يجهد لكى يساعده فى الحصول على مايبحث عنه :

هذا ما قاله الملك العجوز . ولا يمكن أن يكون قد أخطأ . قال لصاحبه :

- لم أكن حتى وقت قريب قد سمعت عن السيميائيين ولكنى أحاول أن أساعدك .

وفجأة أشرقت فى ذهن الإنجليزى فكرة فهتف :

- ولكن بالطبع ! من المحتمل جدا أن أحداً هنا لايعرف أنه سيميائى . اسأل إذن عن الرجل الذى يعالج كل الأمراض فى القرية !

وفدت عدة نساء فى ثياب سوداء ليجلبن الماء من البئر ، ولكن الشاب لم يخاطب أيا منهن رغم إلحاح الإنجليزى ، وأخيرا اقترب أحد الرجال فسأله الشاب:

- هل تعرف هنا رجلا يعالج الأمراض فى القرية ؟

فرد الرجل :

- إن الله هو الذى يشفى كل الأمراض .

بدا عليه بوضوح الإنزعاج من هذين الغريبين وأضاف :

- أنتما تبحثان عن سحرة كلاكما !

وبعد أن تلا بعض آيات من القرآن مضى فى سبيله .

وظهر رجل آخر أكبر سنا لم يكن يحمل سوى دلو صغير فوجه له الشاب

السؤال نفسه ، ولكن العربى سأل بدوره :

– ولماذا إذن تريد أن تعرف مثل هذا الرجل ؟

– لأن صديقى هذا قطع رحلة طويلة استغرقت عدة شهور كيما يقابله فرد العجوز بعد لحظة من التأمل :

– لو أن هذا الرجل يعيش هنا فى الواحة لكان له سلطان كبير . حتى رؤساء القبائل ما كان يمكن لهم أن يروه عند الحاجة حسب مشيئتهم ، بل لابد أن يكون هو الذى يقرر .

انتظرا إذن حتى نهاية الحرب ثم ارحلا مع القافلة . لاتحاولا التدخل فى حياة الواحة .

قال كلمته الأخيرة وهو يبتعد ، لكن الانجليزى شعر بالسعادة ، فهو على الطريق الصحيح !

ولحظتها ظهرت شابة لم تكن ترتدى ملابس سوداء . كانت تحمل جرة تستقر على كتفها ويحيط برأسها غطاء ولكن وجهها كان سافرا . تقدم الشاب منها ليسألها عن موضوع السيميائى .

ثم إنه وكأن الزمن توقف . كما لو أن روح العالم قد تجلت بكل عنفوانها أمام عينى الشاب .

أدرك عندما رأى عينيها السوداويين ، وشفتيها اللتين ترددتا بين الابتسام والسكون أعمق جزء وأحكمه من اللغة التى يتكلمها العالم ، والذى يمكن لكل المخلوقات على سطح الأرض أن تصغى إليه بقلبها ، واسمه الحب . شىء أعمق من البشر ومن الصحراء ذاتها ، لكنه ينبثق دائما بالقوة نفسها حيثما تلتقى نظرتان كما التقت هاتان النظرتان عند البئر .

حزمت الشفتان أمرهما أخيرا على الأبتسام ، وكان تلك علامة – هى العلامة

التي طال انتظاره لها عبر حياته والتي ظل يبحث عنها في الكتب ، وعند الشياه ، وفي الكريستال ، وفي صمت الصحراء .

هاهي إذن لغة العالم الخالصة ، دونما أي شرح ، لأن الكون لايحتاج إلى شرح لكي يواصل طريقه في الفضاء اللانهائي .

كل ما أدركه في تلك اللحظة هو أنه أمام امرأة حياته كلها .

ودونما أدنى حاجة إلى الكلمات فلابد أن تكون هي أيضا قد فهمت . واثته الثقة بذلك أكثر من ثقته بأي شيء آخر في الحياة ، رغم أن أبويه ، وأبوي أبويه ، قد ظلوا يقولون دائما إنه ينبغي أولا أن يتعرف على الفتاة ويتودد إليها ، ثم يخطبها ، ويختبر كل منهما الآخر على أن يتوافر لديه المال قبل الزواج .

لاشك أن من قال ذلك لم يعرف قط لغة العالم ، لأنه عندما يتشرب الإنسان تلك اللغة يسهل عليه أن يفهم أن في العالم دائما شخصا ينتظر الآخر ، سواء كان ذلك في قلب الصحراء أو وسط المدن الكبرى ، وأنه عندما يتقابل هذان الشخصان وتلتقي نظرتاهما ، لا يعود للماضي ولا للمستقبل كله أي أهمية: لا تبقى سوى اللحظة الراهنة ، وذلك اليقين الذي لايتزعزع بأن كل شيء تحت قبة السماء قد خطته يد القدرة الواحدة . اليد التي أبدعت والتي خلقت روحا شقيقة لكل كائن يعمل ويرتاح ويبحث عن الكنوز تحت نور الشمس . لأنه لو لم يكن هذا هو الحال لما أصبح لأحلام البشر أي معنى .

وقال لنفسه :

مكتوب .

نهض الإنجليزي الذي كان جالسا وهز صاحبه قائلا :

– هيا ! .. سلها .

اقترب الشاب من الفتاة فابتسمت مرة أخرى وابتسم أيضا وهو يسألها :

– ما اسمك ؟

فردت وهى تسبل عينيها :

– اسمى فاطمة .

– ذلك اسم أيضا لبعض النساء فى البلد الذى جئت منه .

– هو اسم ابنة الرسول عليه السلام ، وقد نقله جنودنا إلى هناك .

تحدثت الفتاة الرقيقة عن الجنود بفخر .

وألح عليه الإنجليزى الواقف جنبه فسأل الفتاة إن كانت تعرف شيئا عن الرجل الذى يعالج كل الأمراض .

فقالت الفتاة :

– هو رجل يعرف اسرار العالم «ويتكلم مع الجن فى الصحراء .

والجن هم مخلوقات للخير ومخلوقات للشرّ . واشارت الفتاة بيدها إلى اتجاه الجنوب حيث تسكن تلك الشخصية الغريبة، ثم ملأت جرتها وانصرفت.

ذهب الإنجليزى بدوره ليبحث عن السيميائى ، وظل الشاب جالسا لفترة طويلة إلى جانب البئر، مدركا أن الرياح الشرقية لقد لفحت وجهه ذات مرة برائحة تلك المرأة . وأنه قد أحبها حتى قبل أن يعلم بوجودها، وأن الحب الذى يكنه لها سيجعله يكتشف كل أسرار العالم .

***

رجع فى اليوم التالى إلى البئر لكى ينتظر الفتاة هناك، وأدهشه أن يجد الإنجليزى الذى راح للمرة الأولى يتأمل الصحراء وقال له :

– لقد انتظرت طول العصر وطول المساء ، ووصل هو فى اللحظة التى ظهرت فيها أوائل النجوم ، قلت له عما ابحث عنه فسألنى إن كنت قد حولت الرصاص الى ذهب بالفعل، أجبته بأن ذلك بالضبط هو ما أرغب فى أن اتعلمه . فقال لى أن أحاول . لم يزد شيئا على هذه العبارة : «إذهب وحاول».

ظل الشاب صامتا . إذن فقد قطع الإنجليزى كل هذه المسافة لكى يستمع الى ما كان يعرفه بالفعل ، تم تذكر انه هو نفسه قد أعطى للملك العجوز ستة خراف لكى يحصل على النتيجة نفسها فقال للإنجليزى .

– إذن فلتحاول !

– هذا هو ما سأفعله وسأشرع على التو .

وبعد انصرافه بقليل وصلت فاطمة إلى البئر لكى تملأ جرتها، فقال لها الشاب :

– جئت لأقول لك شيئا بسيطا جدا، أود أن تصبحى زوجتى ، فأنا احبك.

تركت الفتاة الماء يفيض من الوعاء، وأكمل هو :

– سأنتظرك هنا كل يوم ، لقد عبرت الصحراء لكى أبحث عن كنز بالقرب من الأهرام، وحلت على الحرب كنقمة ولكنى أراها الآن نعمة لأنها تبقينى هنا بجوارك .

– ستنتهى الحرب بالتأكيد ذات يوم .

راح ينظر إلى النخيل فى الواحة . لقد كان راعيا وكان يملك عددا كبيرا من الخراف، ولا شك أن فاطمة أهم من الكنز .

قالت الفتاة وكأنها تحزر ما يفكر فيه .

– المحاربون يبحثون عن كنوزهم ، ونساء الصحراء يفخرن بمحاربيهم .

ثم ملأت جرتها من جديد وانصرفت .

وظل الشاب يذهب كل يوم إلى جوار البئر لينتظر مجيء فاطمة ، حكى لها عن حياته كراع وعن مقابلته للملك العجوز وعمله فى محل الكريستال ، اصبحا صديقين ، وباستثناء ربع الساعة الذى كان يقضيه فى صحبتها وجد الوقت فى بقية النهار طويلا بشكل بشع .

وعندما مضى عليه فى الواحة ما يقرب من الشهر، دعا رئيس القافلة جميع اتباعه ، وقال :

– نحن لا نعرف متى ستنتهى الحرب، ولا نستطيع ان نستأنف رحلتنا ، ولا شك أن القتال سيستمر وقتا طويلا ، ربما لسنوات ، فهناك فى كل من الجانبين محاربون يتحلون بالشجاعة والإقدام ، فتلك ليست حربا بين الأخيار والأشرار ، بل هى حرب بين قوتين تتنازعان لإحراز السلطة نفسها، وعندما تنشب معركة من هذا النوع فإنها تدوم طويلا لأن السماء فى هذه الحالة تكون مع الطرفين كليهما .

تفرق الجمع ورأى الشاب فى ذلك المساء نفسه فاطمة وروى لها ماقيل فى الاجتماع ، فقالت الفتاة :

– فى لقائنا الثانى حدثتنى عن حبك ثم علمتنى بعدها اشياء جميله ، مثل لغة العالم وروح العالم، وكل ذلك جعلنى اصبح شيئا فشيئا جزءا منك أنت .

استمع الشاب الى صوتها ، وكان وقعه لديه اجمل من وسوسة الريح بين سعف الخيل .

– مضى وقت طويل منذ كنت آتى إلى هذه البئر لكى انتظرك، ولا

استطيع الآن أن أتذكر ماضي. ولا التقاليد ولا الطريقة التي يتوقع بها الرجال من نساء الصحراء ان يتصرفن. منذ كنت طفلة وأنا احلم بأن الصحراء ستحمل لي ذات يوم أجمل هدية في حياتي ، وقد اتتني هذه الهدية أخيرا، وهي أنت .

أراد ان يمسك بيدها، ولكن الفتاة تشبثت بمقبض جرتها، وأكملت:

– لقد حدثتني عن أحلامك ، وعن الملك العجوز وعن الكنز ، وحدثتني عن العلامات – ولهذا فأنا لا أخشى شيئا. لأن تلك العلامات هي التي جاءت بك إلي فأنا جزء من حلمك ومن اسطورتك الذاتية كما اعتدت أن تقول لي. ولهذا السبب نفسه . فأنا أريد أن تتابع طريقك نحو ما جئت تبحث عنه . إن كان ينبغي أن تنتظر حتى نهاية الحرب فهذا حسن جدا. أما إن تحتم أن ترحل قبل ذلك . فارحل نحو اسطورتك . إن كثبان الرمال تتغير بفعل الرياح ولكن الصحراء تظل دائما هي الصحراء، وهكذا سيكون حبنا .

ثم قالت : مكتوب ! إن كنت جزءا من اسطورتك فسوف ترجع لي.

شعر بالحزن عندما غادرها . فكر في كثير من الناس الذين عرفهم : في الرعاة الذين تزوجوا ووجدوا صعوبة في إقناع زوجاتهم بحاجتهم إلى التجول في المراعي . فالحب يقتضي الوجود إلى جوار المحبوب .

وفي اليوم التالي تحدث عن هذه الاشياء مع فاطمة فقالت :

– الصحراء تأخذ منا رجالنا ولا تعيدهم في كل مرة، ويجب أن نقبل ذلك، هم يعيشون بعدها في السحاب الذي يمر دون أن يمطر وفي الحيوانات التي تختبيء وسط الصخور وفي الماء السخي الذي ينبع من الأرض ، هم يصبحون منذ ذلك الحين جزءا من الكل ، وهم يصبحون روح العالم .

وبعض الرجال يرجعون ، وعندئذ تغمر السعادة كل النساء ، لأن الرجال الذين ينتظرونهم يمكن أن يرجعوا هم أيضا ذات يوم ، وكنت قبل الآن

اراقب هاتيك النساء واحسدهن على سعادتهن، أما الآن فسيكون لى أنا أيضا رجل انتظره .

أنا امرأة صحراوية وأنا فخورة بذلك ، أريد لرجلى أيضا أن يمضى طليقاً مثل الرياح التى تحرك الكثبان ، أريده أن يوهب لى فى السحاب وفى الحيوانات وفى المياه .

ذهب الشاب لكى يبحث عن الإنجليزى ، أراد أن يحدثه عن فاطمة ، وأصابه شيء من الدهشة عندما وجد أن الإنجليزى قد صنع موقدا صغيرا إلى جوار خيمته، وكان موقدا غريبا وضع فوقه قارورة شفافة ، وكان الإنجليزى يغذى النار بالخشب ويتأمل الصحراء ، وبدت عيناه أكثر التماعا مما كانتا أثناء استغراقه فى الكتب. وقال :

– هذه هى المرحلة الأولى من العمل، يجب أن أعزل الكبريت النقى وللوصول الى ذلك فيجب ألا أخشى من الفشل ، فخوفى من الفشل هو الذى اقعدنى حتى الآن عن محاولة إنجاز «العمل الكبير» . وها أنا الآن أبدأ ما كان يمكننى أن ابدأه منذ عشر سنوات على الأقل . ولكنى سعيد لأننى لم أنتظر عشرين سنة أخرى .

واستمر يغذى النار وهو يتأمل الصحراء ، وظل الشاب برهة الى أن اصطبغت الصحراء، باللون الوردى فى ضوء الغروب .

وشعر لحظتها برغبة جارفة فى أن ينطلق إلى الصحراء لكى يرى ما إذا كان يمكن للصمت أن يجيب على تساؤلاته .

سار على غير هدى لبعض الوقت بدون ان يغيب عن بصره نخيل الواحة استمع إلى الرياح وشعر بالحصى تحت قدميه .

وكان يعثر فى بعض الاحيان على قوقعة فيعرف أن هذه الصحراء كانت فى عصر بعيد بحرا مترامى الاطراف . جلس فوق حجر كبير واستسلم

لإغواء الأفق الذى يواجهه. لم يكن يستطيع من قبل ان يتصور الحب دون أن يمزجه بالامتلاك. ولكن فاطمة امرأة صحراوية ، ولو كان ثمة شيء بمكن أن يساعده على الفهم فهى الصحراء دون ريب.

ظل على وضعه ذاك دون أن يفكر فى شيء إلى أن جاءت لحظة راوده فيها شعور بأن ثمة شيئا يتحرك فوق رأسه ، وحين رفع عينيه الى السماء رأى صقرين يحلقان على ارتفاع شاهق ، راقب الطيرين الجارحين والتشكيل الذى يرسمانه اثناء طيرانهما . كان فى الظاهر خطوطا متعرجة ولكنها كانت تعنى شيئا ، غير انه لم يستطع ببساطة ان يكشف عن مغزاها ومن ثم فقد قرر أن يتابع ببصره حركة هذين الطائرين ، لعله يتمكن من قراءة رسالة ما . ربما تستطيع الصحراء ان تشرح له الحب دون امتلاك .

شعر بسنة من النعاس ، لكن قلبه طلب إليه ألا ينام ، بل أن يسترخى ، وقال لنفسه ، «ها أنا اتسرب الى أعماق لغة العالم، ولكل شيء فى تلك الاعماق معنى، حتى تحليق صقرين فى السماء ، وشعر بامتنان عظيم لذلك الحب الذى يكنه لامرأة ، «فعندما تحب يكون للأشياء معنى أكبر » .

وبغتة انقض أحد الصقرين ليهاجم الآخر . وفى تلك اللحظة بالضبط باغتت الشاب رؤيا مفاجئة وقصيرة . حشد مسلح يغزو الواحة مشرعا سيوفه. وسرعان ما انمحت الرؤيا لكن بعد أن انطبعت فى ذهنه بقوة ، كان قد سمع عن السراب ورآه بعض المرات ، فهو رغبات تتجسد على رمال الصحراء. ولكنه بالقطع لم يكن يرغب فى أن يرى جيشا يستولى على الواحة .

أراد ان ينسى ذلك كله وأن يعود الى تأمله ، حاول أن يركز من جديد على الصحراء المصطبغة باللون الوردى وعلى الحجارة ، لكن هاتفا فى قلبه لم يشأ أن يتركه فى سلام جاءه حدس بأن تلك الرؤيا توشك أن تصبح حقيقة .

استطاع بصعوبة أن يتغلب على ما شعر به من القلق فنهض وسار فى اتجاه النخيل، وادرك مرة اخرى ذلك التعدد فى معانى الاشياء ، فالآن اصبحت الصحراء هى الأمن بينما اضحت الواحة خطرا .

كان حادى الجمال يجلس إلى جذع نخلة ، ويرقب بدوره غروب الشمس ، ورأى الشاب يقبل من وراء أحد الكثبان وقال بمجرد أن اقترب منه :

– هناك جيش يقترب . ابصرته فى رؤيا .

– الصحراء تملأ قلوب الرجال بالرؤى .

ولكن الشاب حدثه عن الصقرين الذى تابع تحليقهما وكيف أنه نفذ فجأة إلى روح العالم .

لم يجب الحادى بشىء وإن أدرك ما قاله محدثه، كان يعرف أن أى شىء على سطح الأرض يستطيع أن يروى حكاية كل الاشياء فعندما يفتح انسان كتابا على اية صفحة كيفما اتفق، أو يقرأ كف إنسان آخر ، أو يرى تحليق الطيور أو أوراق اللعب ، فهو يستطيع أن يكتشف علاقة ما بما هو فى طريقة الى أن يحدث ، والحقيقة هى أن هذه الأشياء لا تكشف شيئا بذاتها، ولكن البشر هم الذين يكتشفون حين يراقبون الاشياء طريقة ينفذون بها الى روح العالم والصحراء مليئة بأناس يكسبون عيشهم لأنهم يستطيعون النفاذ بسهولة الى روح العالم . وهم معروفون بلقب العرافين ، وتخشاهم النساء والشيوخ ولايستشيرهم المحاربون إلا فيما ندر ، لأنه لا مجال للذهاب إلى قتال لو عرف المحارب فى أية لحظة سيموت . إذ يفضل المحاربون دائما استقبال المعركة ومواجهة المجهول. أما المستقبل فقد خطه الله سبحانه وأيا كان ما قدره فهو لخير البشر. لهذا فإن المقاتلين لا يعيشون سوى الحاضر وحده، لأن الحاضر ملىء بالمفاجئات وعليهم ان يتأهبوا دائما لحشد من الاشياء ما موقع سيف الخصم وأين حصانه وما هى الضربة التى ينبغى ان يوجهوها لكى يتفادوا الموت ؟

ولم يكن الحادى محاربا ، وقد سبق له ان استشار العرافين، وكثيرا ما قال له بعضهم اشياء حقيقية وقال آخرون اكاذيب ، إلى أن جاء يوم سأله فيه أحدهم ، وكان أكبرهم سنا (وأكثرهم مهابة) عن السبب الذى يهتم من أجله بمعرفة المستقبل الى هذا الحد. فرد عليه الحادى :

– لكى اتمكن من أن أفعل بعض الأشياء ، ولكى اتجنب من ناحية أخرى مالا أريد أن يحدث .

فرد العراف : فى هذه الحالة فلن يكون هذا هو مستقبلك !

– ولكن ربما كنت أود ان أعرف المستقبل لكى أتأهب لما هو مقدر أن يحدث .

– إن تكن هى أشياء حسنة فستجيء كمفاجآة طيبة، وإن تكن أشياء سيئة فستقاسى كثيرا من قبل أن تقع .

عندها رد حادى الجمال بقوله :

– أنا أريد أن أعرف المستقبل لأنى إنسان ولأن الناس يعيشون رهنا بمستقبلهم .

ظل العراف صامتا للحظة . كان تخصصه هو لعبة العيدان السحرية التى يرمى بها على الارض . وكان يفسر طريقة سقوطها .

ولكنه فى ذلك اليوم لم يستخدم عيدانه، بل لفها فى قطعة قماش ووضعها فى جيبه ، وقال :

– أنا اكسب عيشى من قراءة المستقبل للناس . فأنا اعرف فن العيدان وكيف استخدمها للنفاذ الى هذه الحجب المدون فيها كل شىء وأستطيع ان أقرأ فيها الماضى وأن أكتشف الأمور المنسية وأن أفهم علامات الحاضر وعندما يستشيرنى الناس فإنى لا أقرأ المستقبل. بل أتكهن به ، لأن المستقبل بيد الله وحده، ولا يكشف سره إلا هو وفى ظروف فذة فكيف اذن

اتكهن بالمستقبل ؟ ذلك بفضل علامات الحاضر . ففى الحاضر يكمن السر ، وإذا انتبهت الى الحاضر يمكنك ان تجعله افضل ، وإذا أحسنت الحاضر فسيكون ما يتلوه أفضل بالمثل . إنس المستقبل وعش كل يوم من حياتك حسب ما تمليه شريعة الله واثقا من رحمته تجاه خلقه . فكل يوم يحمل فى طياته الأبد .

وأراد الحادى أن يعرف ماهى الظروف الفذة التى يسمح فيها الله برؤية المستقبل فرد عليه العراف :

– عندما يكشف هو سبحانه عنه، وهو لا يكشف عنه إلا فيما ندر ولسبب وحيد : أن يكون قد دون أن ذلك مستقبل كتب تغييره. وفكر حادى الجمال ان الله قد كشف للشاب عن مستقبل لأن مشيئته قضت بأن يكون الشاب أداته ، فقال :

– اذهب وقابل روساء القبائل وحدثهم عن المحاربين القادمين .

– سيسخرون منى .

– هم رجال صحراويون . ورجال الصحراء يألفون العلامات .

– إذن فلا بد وأنهم يعرفون الآن .

– ذلك ليس شأنهم ، هم يؤمنون بأنهم إن كان يجب ان يعلموا شيئا قضت مشيئة الله ان يعلموه ، فسيأتى من يخبرهم ، حدث ذلك من قبل مرارا. أما اليوم فأنت حامل البلاغ .

فكر الشاب فى فاطمة . وقرر أن يذهب لمقابلة روساء القبائل .

***

قال الحارس القائم على باب الخيمة البيضاء والكبيرة المنصوبة وسط الواحة :

- أنا احمل رسالة من الصحراء وأود أن أتحدث إلى الرؤساء .

لم يرد الحارس بشيء واختفى داخل الخيمة وظل هناك فترة طويلة ثم خرج وبصحبته شاب عربي يرتدى ثوبا أبيض ومذهبا وحكى له الشاب ما رآه . فطلب منه أن ينتظر لحظة ثم دخل من جديد الى الخيمة .

هبط الليل ، وكان هناك أعراب وتجار يدخلون ويخرجون بأعداد كبيرة، وشيئا فشيئا أخذت الخيام تطفىء أنوارها ، وباتت الواحة بعد قليل ساكنة سكون الصحراء، وفي خلال ذلك الوقت كله لم يكف الشاب عن التفكير في فاطمة، ولم يكن قد فهم حتى ذلك الحين حق الفهم الحوار الذى دار بينهما بعد ظهر اليوم .

وأخيرا وبعد عدة ساعات من الانتظار سمح له الحارس بالدخول ، وأصابه ما رآه بالذهول ، فما كان له أن يتخيل قط أن توجد في قلب الصحراء مثل هذه الخيمة. كانت الأرض مغطاة بأجمل سجاجيد خطا فوقها في حياته ، وكانت تتدلى من أعلى ثريات مذهبة ومرصعة تحمل الشموع الموقدة، وكان روساء القبائل يجلسون في عمق الخيمة في نصف دائرة وهم يتكئون بمرافقهم ويمدون أرجلهم على حشايا من الحرير المطرز تطريزا بديعا وكان هناك خدم يروحون ويجيئون بأيديهم صوان محملة بمأكولات وهم يقدمون الشاى. وانهمك آخرون في المحافظة على اشتعال جمر النارجيلات ، وعبق الجو عطر تبغ عذب ..

كان هناك الرؤساء الثمانية ، ولكنه ادرك على الفور ايهم هو الأرفع مقاما :

كان عربيا يرتدى ثوبا ابيض ومذهبا ويجلس في قلب الحلقة وإلى جواره الشاب الذى تحدث اليه قبل قليل ، وسأل أحد الرؤساء وهو يتطلع اليه :

– من هو الأجنبى الذى يتحدث عن رسالة ؟

فرد: هو أنا .

ثم حكى ما رآه فقال رئيس قبيلة اخرى :

– ولماذا إذن تبوح الصحراء بهذه الاشياء الى آت من بعيد فى حين تعلم أننا هنا منذ عدة أجيال ؟

– لأن عينى لم تألفا الصحراء بعد فهى تستطيع أن ترى أشياء لم تعد الأعين الأليفة قادرة على أن تراها .

وخطر في ذهنه : «ولأننى ايضا أعرف ما هى روح العالم»، ولكنه لم يضف شيئا لأن الأعراب لا يؤمنون بهذه الاشياء وقال رئيس ثالث : الواحة أرض محايدة ، لن يهاجم أحد أية واحة .

– أنا لا أروى سوى ما رأيت ، إن أردتم ألا تصدقوه فلا تفعلوا شيئا .

– أطبق على الخيمة صمت شامل ، تلاه تشاور متوتر بين رؤساء القبائل، كانوا يتكلمون العربية بهلجة لا يفهمها الشاب، ولكنه عندما هم بحركة استعداد للخروج قال له الحارس ان يبقى ، بدأ يشعر بنوع من الخوف ، وقالت له العلامات إن هناك شيئا يجرى علي ما لايرام ، وندم على أنه تكلم عن ذلك الأمر مع حادى الجمال .

وفجأة ابتسم الرجل العجوز الجالس فى الوسط ابتسامة لا تكاد تلحظ فعاوده الاطمئنان، لم يشترك العجوز فى المناقشة ولم يكد ينطق بكلمة حتى تلك اللحظة ، ولكن الشاب كان قد ألف الآن لغة العالم واستطاع أن يشعر بموجة من السلام تعبر الخيمة من طرف إلى الآخر، وقال له حدسه إنه أحسن صنعا بمجيئه .

انتهى النقاش وسكت الجميع ليصغوا إلى ما يقوله الشيخ، الذى التفت نحو الشاب، وقد اصبح تعبير وجهه لحظتها باردا ونائيا .

قال الشيخ :

– قبل الفى عام ، وفى بلد بعيد ، القى بفتى ، كان يؤمن بالاحلام فى بئر ، ثم عثر عليه وبيع بيع الرقيق، اشتراه تجار من عندنا وأحضروه إلى مصر . ونحن نعرف أن كل من يؤمن بالأحلام يعرف أيضا تفسيرها .

– وإن كان لا يستطيع دائما تحقيقها

هكذا فكر الشاب وهو يتذكر الغجرية العجوز .

– واستطاع ذلك الرجل ان يخلص مصر من المجاعة بفضل حلم فرعون عن البقرات السمان والعجاف . كان اسمه يوسف وكان مثلك أجنبيا غريبا فى أرض غريبة ، والأرجح أنه كان فى مثل سنك .

طال الصمت وظلت النظرة فى عين الشيخ باردة ، ثم أكمل :

نحن نتبع التقاليد دائما، ونحن نعرف أن مصر قد انقذها من المجاعة فى زمن مضى حلم فرعون بسبع بقرات سمان وسبع عجاف ، وأن شعبها اصبح اغنى شعوب الارض ، وتعلمنا التقاليد كيف ينبغى على الرجال أن يعبروا الصحراء وكيف ينبغى ان يزوجوا بناتهم . وتقول التقاليد إن الواحة أرض حرام لأن لكل من المعسكرين واحات وهى عرضة للخطر.

ولم ينبس أحد بحرف بينما أكمل العجوز كلامه :

– ولكن التقاليد تقول لنا أيضا ان نصدق رسائل الصحراء. فكل ما نعلمه علمتنا إياه الصحراء .

واشار الشيخ بيده فهب جميع العرب واقفين ، وانتهى الاجتماع وأطفئت النارجيلات، واعتدل العرب فى وقفتهم ، وبينما تأهب الشاب للانصراف استأنف الشيخ حديثه :

– غدا سنلغى الاتفاق بألا يحمل أحد داخل الواحة سلاحا. وسننتظر العدو اثناء النهار وعندما تميل الشمس للمغيب سيعيد الرجال إلى اسلحتهم، وستحصل على قطعة من الذهب فى مقابل قتل كل اثنى عشر من الاعداء .

ولكن الاسلحة لايمكن أن تخرج إلا لكى توجه للقتال ، لأن لها نزواتها مثل الصحراء ، وإذا ما أخرجناها عبثا فقد ترفض بعد ذلك ان تطلق النار، وما لم يستخدم أى منها غدا، فسيصلح أحدها على الأقل لاداء الغرض : ضدك أنت ! .

***

عندما خرج لم يكن يضيء الصحراء غير بدر مكتمل ، وكانت أمامه مسيرة عشرين دقيقة حتى خيمته فمضى فى طريقه ، ارهقه كل ما مر به ، انغمس فى روح العالم لحظة ويمكن أن يكون الثمن الذى يدفعه لذلك هو حياته ذاتها. رهان كبير ، ولكنه راهن بالكثير منذ باع خرافه لكى يتبع اسطورته الذاتية . وكما قال له حادى الجمال فإن الموت فى الغد شأنه شأن الموت فى أى يوم آخر ، فقدخلق كل يوم إما لكى تحياه أو لكى نرحل فيه عن الحياة . وكل شيء يتوقف على كلمة واحدة: «المكتوب» ..

سار فى طريقه صامتا. لم يأسف على شيء إن كان لابد من أن يموت فى الغد فسيكون ذلك لأن مشيئة الله هى ألا يتغير المستقبل. ولكن الموت سيأتى بعد أن عبر المضيق وبعد أن عمل فى محل للكريستال ، وبعد أن عرف الصحراء، وعينى فاطمة . لقد عاش حياة حافلة كل يوم من أيامه منذ غادر بلده، وذلك منذ وقت طويل ، فإن تعين أن يموت فى الغد فقد رأت عيناه كثيرا من الأشياء التى لم تراها أعين غيره من الرعاة وهو بذلك فخور .

وفجأة سمع صوتا كأنه الهدير ، وقذفت به بغتة على الارض عاصفة من الرياح لم يسبق لعنفها مثيل، واجتاحت المكان سحابة من الرمال كادت تحجب ضوء القمر ، وشب أمام عينيه حصان أبيض عملاق يصهل صهيلا مرعبا .

استطاع بالكاد أن يدرك ما حدث ، ولكن عندما انقشع الغبار شعر برعب لم يعان مثله من قبل . كان يمتطى صهوة ذلك الحصان الذى يواجهه رجل يرتدى السواد من قمة رأسه حتى قدمه ، يرتكز على كتفه اليسرى

صقر ، كان يرتدى عمامة ويحجب وجهه كله لثام لا يكشف غير عينيه ، بدا كواحد من رسل الصحراء ، ولكن حضوره الطاغى لم يكن له شبيه .. انتزع الرجل من الغمد سيفاً كبيراً مقوس النصل كان معلقاً فى سرجه، ولمع الصلب فى ضوء القمر.

«من ذا الذى جرؤ على أن يفسر تحليق الصقور»؟

سأله الرجل بصوت مدو بدا وكأن نخلات واحة الفيوم الخمسين ألفا تردده.

قال الشاب: «أنا الذى جرؤت».

تذكر تمثال القديس جاك الذى كان يسحق الخصوم تحت سنابك حصانه، هى الآن الصورة نفسها غير أن الموقف معكوس تماماً.

كرر الشاب: «أنا الذى جرؤت»، ثم أحنى رأسه انتظاراً لضربة السيف وأكمل «ستنقذ أرواح كثيرة، لأنكم أغفلتم أن تعملوا حساباً لروح العالم».

غير أن السيف لم ينقض سريعاً، بل نزلت يد الفارس ببطء ولمس طرف السلاح جبهة الشاب، وكان مرهف الحد إلى درجة أنه أراق قطرة من الدم.

ظل الفارس ساكناً تماماً، وكذلك ظل الشاب. لم تطرأ حتى على باله فكرة الهرب. غمرته من أعماق فؤاده غبطة غريبة:

سيموت من أجل أسطورته الذاتية. سيموت من أجل فاطمة.

لقد صدقت العلامات آخر الأمر، فهاهو العدو قد وصل، ولا ينبغى أن يقلق من الموت لأن هناك روحاً للعالم سيصبح هو بعد قليل جزءاً منها، وغداً أيضاً سيصبح العدو جزءاً منها.

ولكن العدو اكتفى بإبقاء ذؤابة سيفه على جبهته.

– لماذاقرأت تحليق الطيور؟

– قرأت فقط ما أرادت الطيور أن ترويه. هى تريد إنقاذ الواحة، وستموت أنت وصحبك، فرجال الواحة أكثر منكم عدداً.

ظلت ذؤابة السيف على جبهته.

– ومن تكون أنت لتغير مصيراً خطته مشيئة الله؟

– لقد خلق الله الجيوش كما خلق الطيور، ودلنى الله على ما عناه الطير، فكل شىء قد خطته يد مشيئته.

قال الشاب ذلك متذكراً حديث الحادى.

وأخيراً رفع الفارس سيفه، وتنفس الشاب الصعداء، لكنه لم يستطع أن يهرب.

– احترس من التنبؤ، عندما تكون الأشياء مقدرة فلا سبيل إلى تفاديها.

– كان كل ما رأيته جيشاً ولم أر كيف تنتهى المعركة.

بدا الفارس مرتاحاً إلى هذه الإجابة ولكنه ظل يشهر سيفه، وسأله:

– ما الذى يفعله غريب فى أرض غريبة؟

– أسعى وراء أسطورتى الذاتية، وهذا شىء لا يمكنك أن تفهمه.

وضع الفارس سيفه فى غمده، وأطلق الصقر المرتكز على كتفه صيحة غريبة، وبدأ الشاب يسترد هدوءه، بينما قال الفارس:

– كان لابد أن أختبر شجاعتك، فالشجاعة هى الفضيلة العظمى التى تبحث عنها روح العالم.

أصابت الشاب الدهشة، فهذا الفارس يتحدث عن أشياء لا يعرفها إلا قلة من الناس، وأكمل الفارس :

– لا يجب على الإنسان أن يتقاعس حتى ولو كان قد قطع مسافة طويلة جداً، عليه أن يحب الصحراء، ولكن دون أن يعطيها كل ثقته أبداً، فالصحراء محك اختبار لكل الرجال: هى تمتحن كل خطوة من خطاهم، وتقتل من يترك

نفسه للشرود.

ذكرته كلماته بالملك العجوز، وواصل الفارس حديثه.

– أنا ما وصل المحاربون، وإذا ما ظللت محتفظاً برأسك فوق رقبتك غداً، فتعال لرؤيتى بعد غروب الشمس.

وأمسكت نفس اليد التى كانت تشهر السيف بسوط وشب الحصان من جديد مثيراً سحابة من الغبار.

وصاح الشاب بينما كان الفارس يبتعد:

– أين تقيم؟

فأشارت اليد التى ترفع السوط فى اتجاه الجنوب.

وهكذا ألتقى الشاب بالسيميائى.

* * *

فى اليوم التالى، كان هناك ألفا رجل يحملون السلاح وسط نخيل الفيوم، وقبل أن تبلغ الشمس السمت، ظهر فى الأفق خمسمائه محارب، دخل الفرسان الواحة من شمالها، وكانت تلك فى ظاهرها زيارة سلمية، ولكن الأسلحة كانت مخبأة تحت العباءات البيضاء، وعندما وصلوا بالقرب من الخيمة الكبيرة المنصوبة وسط الواحة، أشهروا سيوفهم المحدبة وبنادقهم وأغاروا على خيمة خالية.

أحاط رجال الواحة بفرسان الصحراء وفى خلال نصف ساعة كانت هناك أربعمائة وتسع وتسعون جثة متناثرة فوق الأرض.

ظل الأطفال فى الطرف الآخر من غابة النخيل ولم يروا شيئاً، وراحت النساء يصلين من أجل أزواجهن تحت الخيام ولم يرين شيئاً أيضاً، ولولا تلك الجثث التى كانت ممددة فى كل مكان لبدا أن الواحة تعيش يوماً عادياً.

وأنقذت حياة محارب واحد، هو قائد فريق المغيرين. اقتيد فى المساء أمام رؤساء القبائل، فسألوه عن السبب الذى دفعه إلى خرق التقاليد. قال إن رجاله كانوا يعانون من الجوع ومن العطش وإنهم وقد انهكتهم أيام الحرب الطويلة قرروا أن يستولوا على إحدى الواحات ليتمكنوا من استئناف القتال.

قال الرئيس الأعلى للقبيلة إنه يأسف من أجل المحاربين ولكن لابد من احترام التقاليد فى كل الظروف. فالشىء الوحيد الذى يتغير فى الصحراء هو الكثبان حين تحركها الرياح.

ثم حكم على زعيم الخصوم بموت مشين: فبدلاً من قتله بالسلاح الأبيض أو برصاصة بندقية، تم شنقه على جذ ع نخلة جافة، وظللت جثته تتأرجح فى رياح الصحراء.

واستدعى شيخ القبيلة الشاب وأعطاه خمسين قطعة من الذهب ثم طلب إليه أن يصبح منذ تلك اللحظة مستشار القبيلة.

* * *

عندما اختفت الشمس تماماً وظهرت أولى النجوم فى السماء (ولم تكن تلمع كثيراً بسبب اكتمال البدر) أخذ الشاب طريقه متجهاً إلى الجنوب، ولم تكن هناك سوى خيمة واحدة، وطبقاً لما قال له بعض العربان الذين صادفهم فقد كانت تلك منطقة مسكونة بالجن، ولكنه جلس هناك وانتظر فترة طويلة.

ظهر السيميائى عندما ارتفع البدر فى السماء وكان يحمل على كتفيه صقرين ميتين.

قال الشاب: ها أنذا.

– ما كان يجب أن تكون هنا، أم هل شاءت أسطورتك الذاتية أن تأتى حتى هذا المكان؟

– هناك حرب بين العشائر ومن المستحيل عبور الصحراء.

ترجل السيميائى عن حصانه وأشار بيده يدعو الشاب إلى دخول الخيمة.

كانت خيمة شبيهة بكل الخيام الأخرى التى استطاع الشاب أن يراها فى الواحة – باستثناء الخيمة الرئيسية الكبيرة، التى كان ثراؤها أسطوريا. وفتش بعينه عن أجهزة السيميائى ومواقده ولكنه لم يجد أثراً لذلك. لم يكن هناك سوى بضعة أكوام من الكتب وموقد وسجاجيد مزينة برسوم غامضة، قال السيميائى:

– أجلس، فسوف أعد شايا، وسنأكل معاً هذين الصقرين.

وتساءل الشاب عما إذا لم يكن هذان هما الطائرين اللذين رآهما البارحة ولكنه لم يقل شيئاً. أوقد السيميائى النار وتصاعدت بعد قليل رائحة لحم شهية فى الخيمة، ألذ من عبق النارجيلة. سأل الشاب:

– لماذا أردت أن ترانى؟

– بسبب العلامات. نبأتنى الرياح أنك قادم وأنك ستكون بحاجة إلى العون.

– لا. ليس أنا، بل الأجنبى الآخر، الإنجليزى، هو الذى كان يفتش عنك.

– عليه أن يعثر على أشياء أخرى قبل أن يلقانى أنا، ولكنه على الطريق الصحيح، فقد بدأ يتأمل الصحراء.

– وأنا؟

قال السيميائى مكرراً كلمات الملك العجوز:

– عندما نريد شيئاً، يتآمر الكون كله لكى يسمح بتحقيق حلمنا.

وفهم الشاب، إذن فهاهو رجل آخر يلقاه فى طريقه، لكى يقوده إلى أسطورته الذاتية.

– إذن فسوف تعلمنى؟

– لا، فأنت تعرف بالفعل كل ما تنبغى معرفته. سأضعك فقط على الطريق المتجه إلى كنزك.

– هناك حرب بين العشائر.

– ولكنى أعرف الصحراء.

– لقد وجدت بالفعل كنزى، فعندى جمل والمال الذى ادخرته من محل الكريستال، وخمسون قطعة من الذهب، يمكننى أن أصبح رجلاً ثرياً فى بلدى.

– ولكن لا شىء من هذا كله بالقرب من الأهرام.

– عندى فاطمة وهى كنز أغلى من كل ما نجحت فى الحصول عليه.

– هى أيضاً ليست بالقرب من الأهرام.

أكلا الصقرين فى صمت، وفتح السيميائى زجاجة صب منها سائلاً

أحمر فى كوب ضيفه. كان نبيذاً ومن أفخر الأنواع التى ذاقها فى حياته.

وعندما شرب الشاب بدأ يشعر بأنه على مايرام، ولكن السيميائى أخافه قليلاً. كانا يجلسان خارج الخيمة يتأملان نور القمر الذى خسف النجوم، وقال السيميائى الذى لاحظ تزايد ابتهاج الشاب:

- اشرب وخذ وقتاً كافياً، وارتح كما يرتاح المحارب دائماً قبل أن يخرج للمعركة، ولكن لا تنس أن قلبك هناك حيث يوجد كنزك. وأنه لابد من العثور على كنزك لكى يصبح لكل ما اكتشفته معنى.

فى الغد بع جملك واشتر حصاناً. فالجمال خادعة - هى تقطع آلاف الخطى دون أن يبدو عليها أى أثر للتعب، ثم فجأة تسقط على ركبها وتموت، أما الخيول فهى تتعب بالتدريج، وستعرف دائماً حدود ما تستطيع أن تطلبه منها ومتى ستموت.

* * *

فـي مسـاء اليوم التالـي وصـل الشـاب أمام خيمة السيميائى على صـهوة حـصـان، وانتظر قليلاً إلى أن وصل السـيـمـيـائى ممتطياً الحـصـان بـدوره والصقر مرتكز على كتفه اليسرى، قال للسيميائى:

– أرنى الحياة فى قلب الصحراء، فلا يكتشف الكنوز سوى من يستطيع أيضاً أن يكتشف الحياة.

شقا طريقهما وسط الرمال يغمرهما ضوء القمر، وفكر الشاب: «لست أدرى إن كنت سأنجح فى اكتشاف الحياة فى قلب الصحراء، فأنا لا أعرف هذه الصحراء بعد».

وأراد أن يرجع ليقول هذه الخاطرة للسيميائى ولكنه كان يخشاه. ووصلا إلى المنطقة الصخرية التى رأى فيها الصقرين بالأمس فى السماء، الآن لم يكن هنا سوى الصمت والرياح. قال الشاب:

– لا يسعنى أن اكتشف الحياة فى الصـحـراء. أدرك وجودها ولكنى لا أستطيع أن أضع يدى عليها.

رد السيميائى: الحياة تجتذب الحياة.

وفهم الشاب مرمى كلامه، وترك على الفور أعنة حصانه الذى بدأ يتقدم علي هواه وسط الحجارة والرمال. تبعه السيـمـيائى صامتاً وظل حصان الشاب يتقدم كما شاء خلال نصف ساعة، لم يعد بوسع الرجلين أن يريا نخيل الواحة، ولم يعد هناك غير ضوء السماء الرائع والصخور التى تلمع تحته كالفضة، وفجأة، فى بقعة لم يسبق الشاب أن طرقها شعر بمطيته تتوقف وقال للسيميائى:

– هنا توجد حياة، أنا لا أعرف لغة الصحراء بعد، ولكن حصانى يعرف لغة الحياة.

ترجلا، ولم يقل السيميائى شيئاً، بل أخذ يراقب الأحجار وهو يتقدم ببطء، ثم توقف فجأة وانحنى فى حذر بالغ.

كانت هناك حفرة فى الأرض بين الأحجار، مد فيها السيميائى يده، ثم أدخل ذراعه بأكملها حتى الكتف. كان هناك شىء يتحرك هناك فى العمق البعيد، وزر السيميائى عينيه مما بين المجهود الذى كان يبذله، ولم يكن الشاب يستطيع أن يرى سوى عينيه، وبدا أن الذرا ع تصارع الشىء الذى وجدته فى عمق الحفرة، وفى وثبة أفزعت الشاب سحب السيميائى ذراعه وهب واقفاً، وكانت يده تمسك ثعباناً من ذيله.

ووثب الشاب بدوره، ولكن إلى الخلف، كان الثعبان يتلوى فى جنون مطلقاً فحيحاً وأصواتاً تجرح صمت الصحراء، كان من نوع الكوبرا ويمكن أن يقتل سمه رجلاً فى بضع دقائق.

وفكر الشاب «احترس من السم» ولكن السيميائى الذى وضع يده فى الحفرة لابد ن يكون قد تعرض للدغة بالفعل. غير أن وجهه كان هادئاً تماماً. وكان الشاب قد سمع الانجليزى يقول: إن عمر السيميائى مائتا عام، فلابد أنه يعرف كيف يتصرف مع ثعابين الصحراء.

رأى صاحبه يرجع إلى صهوة حصانه وينتزع سيفه الشبيه بالهلال، ثم يرسم به دائرة على الأرض.

وضع الثعبان داخل تلك الدائرة فسكنت حركته على الفور.

قال السيميائى: لا تقلق. لن يخرج من هذه الدائرة، وقد اكتشفت أنت الحياة فى الصحراء، وهى العلامة التى كانت تلزمنى.

– ولم كان ذلك مهماً إلى هذا الحد؟

– لأن الأهرام فى وسط الصحراء.

لم يرغب الشاب فى سماع حديث عن الأهرام، كان قلبه مثقلاً وحزيناً منذ ليلة البارحة، لأن السعى وراء الكنز يعنى ضرورة الابتعاد عن فاطمة، وعندها قال له السيميائى:

– سأقودك عبر الصحراء.

فرد الشاب:

– أود أن أبقى فى الواحة، لقد التقيت بفاطمة وهى عندى أغلى من الكنز.

– فاطمة فتاة صحراوية، وهى تعرف أنك يجب أن ترحل لكى تعود. هى قد وجدت بالفعل كنزها: أنت، والآن فهى تنتظر منك أن تعثر على ما تبحث عنه.

– وإذا ما قررت أن أبقى؟

– ستصبح مستشار الواحة، وستملك من الذهب ما يكفى لكى تشترى عدداً كبيراً من الخراف والجمال، ستتزوج فاطمة وستعيش سعيداً خلال السنة الأولى، ستتعلم كيف تحب الصحراء، وستعرف كل واحدة من الخمسين ألف نخلة. ستفهم كيف تنمو وستجعلك ترى عالماً لا يكف عن التغير، وسيتحسن يوماً بعد يوم تفسيرك للعلامات، لأن الصحراء معلم بلا نظير.

وفى السنة الثانية ستتذكر وجود كنز، وستبدأ العلامات تتحدث إليك بإلحاح بينما تحاول أنت ألا تلقى لها بالاً، وستستخدم ما تعلمه لصالح الواحة وسكانها فحسب. سيكون رؤساء الواحة ممتنين لك وستجلب لك جمالك الثراء والسلطة.

وفى السنة الثالثة ستواصل العلامات الحديث عن كنزك وعن أسطورتك الذاتية، ستقضى ليالٍ بعد أخرى هائماً فى الواحة، وستصبح فاطمة امرأة تعيسة لأنك أوقفت مساعيك من أجلها هى. ولكنك ستظل تحبها وستبادلك هى الحب، ستتذكر أنها لم تطلب منك أبداً أن تبقى، لأن المرأة الصحراوية تعرف انتظار عودة رجلها. ستسير الليالى بعد الليالى فى رمال الصحراء، متذكراً أنك ربما كان بوسعك من قبل أن تواصل طريقك مولياً حبك لفاطمة ثقة أكبر. لأن ما جعلك تبقى فى الواحة لم يكن شيئاً آخر غير خشيتك أنت

نفسك من ألا تعود. وعندما تصل إلى هذه المرحلة ستدلك العلامات على أن كنزك قد غاص فى باطن الأرض إلى الأبد.

وفى السنة الرابعة ستهجرك العلامات، لأنك لم ترد أن تستمع، وسيفهم رؤساء القبائل ذلك وتعزل من منصب المستشار. ستصبح بعد ذلك تاجراً غنياً، مالكاً للعديد من الجمال ولبضائع كثيرة، ولكنك ستقضى بقية أيامك هائماً وسط النخيل والصحراء، عالماً أنك لم تنجز أسطورتك الذاتية وأن الوقت قد فاتك لكى تفعل ذلك، فأنت لم تدرك أبداً أن الحب لا يمنع رجلاً بأية حال من أن يسعى وراء أسطورته الذاتية، وإن حدث ذلك فمعناه أنه لم يكن حباً حقيقياً، أى الحب الذى يتكلم لغة العالم.

محا السيميائى الدائرة التى كان قد رسمها على الرمل ففر ثعبان الكوبرا مسرعاً ليختفى وسط الأحجار.

عاد إلى ذاكرة الشاب تاجر الكريستال الذى أراد دائماً أن يذهب إلى مكة والإنجليزى الذى ظل يبحث عن سيميائى وفكر فى امرأة وثقت فى الصحراء وجلبت لها الصحراء ذات يوم من ودت أن تحبه.

امتطيا جواديهما، وفى هذه المرة كان الشاب هو الذى يتبع السيميائى. كانت الرياح تنقل أصواتاً من الواحة، وحاول أن يتعرف على صوت فاطمة التى لم تذهب فى ذلك اليوم إلى البئر بسبب المعركة.

ولكن فى هذه الليلة بينما كان يراقب ثعباناً داخل دائرة، تحدث الفارس الغريب الذى يرتكز الصقر على كتفه عن الحب وعن الكنوز وعن نساء الصحراء وعن أسطورته.

قال الشاب: سأذهب معك.

وشعر على الفور بسلام يغمر قلبه.

– سنرحل غداً، قبل أن تشرق الشمس.

وكان هذا هو كل ما رد به السيميائى.

* * *

لم يستطع الشاب أن ينام فى تلك الليلة. وقبل طلوع الفجر بساعتين أيقظ أحد الصبية الذين كانوا ينامون معه فى الخيمة نفسها وطلب منه أن يدله على المكان الذى تسكن فيه فاطمة، خرجا كلاهما متوجهين إلى هناك، وفى المقابل أعطى لدليله ثمن شراء شاة.

رجاه بعدها أن يبحث عن المكان الذى تنام فيه الفتاة وأن يوقظها ويقول لها إنه ينتظرها فى الخارج. نفذ الأعرابى الصغير مهمته وتلقى ما يكفى لشراء شاة أخرى، ثم قال له:

– والآن اتركنا وحدنا.

رجع الصبى إلى الخيمة ليستأنف نومه فخوراً بأنه قد ساعد مستشار الواحة وراضياً لأن معه من المال ما يكفى لشراء غنم.

ظهرت فاطمة على باب الخيمة، وسارا معاً إلى قلب غابة النخيل، كان يعرف أن هذا ضد التقاليد، ولكن لم يعد لذلك الآن أية أهمية. قال لها:

– سوف أرحل، وأريدك أن تعرفى أنى سأعود. أنا أحبك لأنى...

– لا تقل شيئاً، الإنسان يحب لأنه يحب، لا يوجد أى سبب للحب.

ولكنه استأنف كلامه: أنا أحبك لأنى حلمت حلماً ثم قابلت ملكاً وبعت الكريستال وعبرت الصحراء وتحاربت القبائل فيما بينها واقتربت من بئر لأسأل أين يسكن سيميائى.. أنا أحبك لأن الكون كله تآمر لكى أصل إليك.

تعانقا وكانت تلك أول مرة يتلامس فيها جسداهما، وقال الشاب مرة أخرى:

– سأرجع.

– من قبل كانت تواتينى رغبة حين أنظر إلى الصحراء، أما الآن فسيكون محلها الأمل، رحل أبى ذات يوم ولكنه رجع إلى أمى، وهو يرجع ثانية فى كل مرة.

ولم يقولا شيئاً بعد ذلك، سارا قليلاً فى غابة النخيل، ثم صحبها الشاب مرة أخرى حتى باب خيمتها وقال:

– سأرجع كما رجع والدك إلى والدتك. ولاحظ أن عينى فاطمة اغرورقتا بالدموع.

– هل تبكين؟

ردت وهى تخفى وجهها:

– أنا امرأة صحراوية. ولكنى امرأة قبل كل شىء.

رجعت فاطمة إلى خيمتها قبيل شروق الشمس. ستخرج عندما يطلع النهار لكى تفعل ما ظلت تفعله منذ سنوات، ولكن كل شىء قد تغير، لن يكون الفتى فى الواحة، ولن يكون للواحة معناها نفسه الذي كان لها قبل وقت قصير، لن تكون موضع الخمسين ألف نخلة والثلاثمائة بئر الذى كان كعبة للمسافرين يصلونها سعداء بعد رحلة طويلة. منذ تلك اللحظة لن تكون الواحة بالنسبة لها سوى مكان فارغ.

منذ تلك اللحظة ستصبح الصحراء أهم من الواحة. ستقضى وقتها تراقب الصحراء وهى تسأل نفسها أى النجوم يهدى الشاب فى طريقه إلى كنزه، وسترسل للشاب قبلاتها مع الرياح آملة أن تلمس وجهه وأن تقول له إنها تحيا وإنها تنتظره، كامرأة تنتظر رجلاً شجاعاً يشق طريقه سعياً وراء أحلامه وكنوزه.

ومنذ ذلك اليوم لن تكون الصحراء سوى شىء واحد، هو الأمل فى عودته.

* * *

قال السيميائي عندما بدأ يتوغلان في رمال الصحراء:

– لا تفكر فيما تركته وراءك، فكل شيء مسجل في روح العالم وسيظل هناك إلى الأبد.

فقال الشاب الذي اعتاد من جديد على صمت الصحراء:

– الناس يحلمون بالعودة أكثر من الرحيل.

– إن كان ما وجدته من معدن نقي فلن يبلى أبداً، وستستطيع أن ترجع إليه يوما، أما إن كان شهاباً من نور كاحتراق النجم، فلن تجد شيئاً عندما تعود ولكنك ستكون قد رأيت نور شهاب، وهذا وحده يستحق عناء الحياة.

كان الرجل يتكلم بلغة السيمياء ولكن رفيق دربه أدرك أنه يلمح إلى فاطمة.

كان من الصعب ألا يفكر فيما تركه وراءه، فالصحراء التي لا يكاد منظرها يتغير لاتني تملؤه بالأحلام. رأى الشاب مرة أخرى غابة النخيل والآبار ووجه الحبيبة، ورأى الإنجليزي في مختبره، وحادي الجمال الذي كان معلماً دون أن يدرك ذلك.

وقال الشاب لنفسه: «لعل السيميائي لم يقع في الحب أبداً».

كان يسبقه بصقره الواقف على كتفه، وكان الصقر يعرف لغة الصحراء تماماً، وعندما يتوقفان، كان يغادر كتف السيميائي ويحلق بحثاً عن الغذاء، أحضر أرنباً في اليوم الأول، وطائرين في اليوم الثاني.

وفي الليل كانا يفرشان ملاعتيهما على الأرض لكنهما لا يوقدان ناراً، كانت ليالي الصحراء باردة وازدادت ظلمتها مع نقصان القمر في السماء، وظلا على مدى أسبوع كامل يتقدمان في صمت، دون أن يتكلما سوى عن الاحتياطات التي باتت ضرورية لتجنب الدخول في المعارك. كانت حرب العشائر مستمرة، وأحياناً كانت الرياح تنقل رائحة الدماء، فلابد أن معركة

قد نشبت في الجوار، وذكرت الرياح الشاب بلغة العلامات، المستعدة دائماً لأن تدل بصره على ما لا يستطيع أن يراه.

وفي ليلة اليوم السابع من الرحيل قرر السيميائي أن يرتاحا في موعد مبكر عن المعتاد، وانطلق الصقر بحثا عن الصيد. سحب السيميائي قربة الماء وقدمها إلى الشاب قائلاً:

– ستصل عما قريب إلى نهاية رحلتك، لقد سعيت وراء أسطورتك الذاتية وأنا أهنئك.

– ولكنك قدتني دون أن تبوح لي بشيء، اعتقدت أنك ستعلمني ما تعرفه، فمنذ وقت قريب التقيت في الصحراء برجل يملك كتباً عن السيمياء، غير أني لم أتعلم شيئاً.

– لا توجد سوى طريقة واحدة للتعلم: هي العمل. كل ما كنت بحاجة إلى أن تعرفه علمتك الرحلة إياه. ولم يبق سوى شيء واحد.

أراد الشاب أن يعرف ماهو هذا الشيء، لكن السيميائي ظل يحدق مترقباً عودة الصقر.

– لماذا يسمونك بالسيميائي؟

– لأني كذلك.

– وماهي المشكلة بالنسبة للسيميائيين الآخرين الذين بحثوا عن الذهب وفشلوا؟

– إنهم اكتفوا بالبحث عن الذهب. بحثوا عن كنز أسطورتهم الذاتية دون أن يرغبوا في أن يعيشوا الأسطورة ذاتها.

ألح الشاب:

– وإذن فما هو الشيء الذي ينقصني أن أعرفه؟

لكن السيميائي استمر يحدق في الأفق، وبعد فترة من الزمن رجع

الصقر وفي براثنه صيد. حفرا حفرة في الأرض وأشعلا النار داخلها لكي لا يتمكن أحد من رؤية اللهب، ثم قال وهو يعد وجبتيهما:

– أنا سيميائي لأني سيميائي. تعلمت هذا العلم من أسلافي الذين تعلموه من أسلافهم، وهكذا منذ كان العالم، وفي ذلك الوقت كان من الممكن تدوين كل «العمل الكبير» على زمردة صغيرة ولكن الناس لم يولوا أهمية للأشياء الصغيرة وبدأوا يكتبون رسائل، وشروحاً، ودراسات فلسفية، وبدأوا أيضاً يتظاهرون بأنهم يعرفون الطريق أفضل مما يعرفه الآخرون.

– وما الذي كان مدوناً في جدول الزمرد؟

شرع السيميائي يرسم على الرمل، ولم يستغرق منه هذا العمل أكثر من خمس دقائق، وبينما كان مستغرقاً في الرسم تذكر الشاب الملك العجوز والميدان الذي قابله فيه، وبدا أن ذلك يرجع إلى سنوات وسنوات خلت.

قال السيميائي:

– إليك ماكان مكتوباً في جدول الزمرد.

اقترب الشاب وقرأ الكلمات المدونة على الرمل. ثم قال وهو يشعر بخيبة الأمل من جدول الزمرد:

– لكن هذا رمز. يكاد يشبه ماهو مدون في كتب الانجليزي.

– لا، بل هو مثل تحليق الصقرين: شيء لا يتسنى فهمه بالعقل وحده. جدول الزمرد بوابة مباشرة إلى روح العالم. فهم الحكماء أن هذا العالم ما هو إلا صورة وذكرى للجنة. مجرد وجود هذا العالم هو ضمان لوجود عالم أرقى منه. خلق الله هذا العالم ليتسنى للناس أن يفهموا بواسطة المحسوسات المرئية إرشاداته الروحية وعجائب حكمته سبحانه، وذلك هو ما أسميه العمل.

– فهل يجب إذن أن أفهم جدول الزمرد؟

– ربما. لو أنك كنت فى مختبر لكانت الآن هى اللحظة المواتية لتدرس أفضل الطرق لفهم جدول الزمرد. غير أنك الآن فى الصحراء، فالأحرى إذن أن تستغرق فى قلب الصحراء. هى تساعد على فهم العالم مثلها مثل أى شىء آخر على سطح الأرض بل إنك لست بحاجة إلى أن تفهم الصحراء، يكفى أن تتأمل ذرة واحدة من الرمل وستكتشف فيها كل عجائب الخلق.

– وما الذى ينبغى أن أفعله كيما أستغرق فى قلب الصحراء؟

– اصغ الى قلبك، فهو يعرف كل شىء لأنه آت من روح العالم وسيرتد إليها ذات يوم.

* * *

تقدما فى طريقهما صامتين لمدة يومين بعد ذلك، أفرط السيميائى فى الحرص والحذر. لأنهما كان يقتربان من أكثر مناطق المعارك ضراوة، وجاهد الشاب لكي يصغي الى قلبه. وكان قلبا عصيا على الفهم. كان من قبل مستعدا للرحيل دائما. والآن يريد أن يصل بأى ثمن، وفى بعض اللحظات كان قلبه يحكي له قصصا طويلة مفعمة بالحنين، وفى أحيان أخرى كان يمتلئ بالشجن منذ بزوغ الشمس فى الصحراء بحيث يدفع الشاب الى البكاء خفية. وكان يخفق بسرعة أكبر عندما يحدثه عن الكنز، ويبطىء عندما تجول عينا الفتى فى فضاء الصحراء اللانهائى. لكنه لم يكن يصمت أبدا. حتى ولو لم يتبادل الشاب كلمة واحدة مع السيميائى.

وفى تلك الليلة سأله عندما توقفا :

– لماذا يجب أن نصغى الى قلوبنا؟

– لأنه حيث يكو ن قلبك يكون كنزك.

– قلبى مضطرب، يرى أحلاما ويقلق، وهو يعشق فتاة من الصحراء يسألنى عن أشياء ويحرمنى من النوم ليالى بعد ليال عندما أفكر فيها.

– هذا حسن، قلبك حى إذن فواصل الإصغاء الى ما يقول .

وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية صادفا عديدا من المحاربين ولمحا آخرين فى الأفق. بدأ قلب الشاب يتحدث عن الخوف، روى حكايات استمع اليها من روح العالم وحكايات عن رجال رحلوا بحثا عن كنوزهم فلم يجدوها أبدا، وأحيانا كان يرعبه بفكرة أنه يمكن ألا يصل قط الى الكنز، أو أنه يمكن أن يلقى حتفه فى الصحراء، بل وكان أحيانا يقول له إنه قد وجد الآن كفايته. إذ صادف حبا وربح قطعا لا بأس بها من الذهب .

قال الشاب للسيميائى عندما توقفا ليريحا حصانيهما قليلا :

– قلبى خائن ، هو لا يريدنى أن أستمر .

– هذا حسن ويدل على أن قلبك برئ من الطبيعى أن نشعر بالخوف حين نبادل كل ما نجحنا فى أن نحصل عليه بالفعل من أجل حلم .

– فلماذا إذن يجب أن أصغى إلى قلبى؟

– لأنك لن تنجح فى إسكاته أبدا . وحتى لو تظاهرت بأنك لا تسمع ما يقول فسيظل هناك فى صدرك. ولن يكف عن ترداد ما يعتقده عن الحياة والعالم .

– حتى ولو كان خائنا؟

– الخيانة هى الضربة التى لا تتوقعها، أما إن كنت تعرف قلبك جيدا، فإنه لن يباغتك أبدا على هذا النحو، لأنك ستعرف أحلامه ورغباته، وستعرف كيف تراعيه، لا يمكن لأحد أن يهرب من قلبه، ولهذا فالأفضل أن تصغى الى ما يقول ، حتى لا يحدث أن تتلقى ضربة لم تكن تتوقعها أبدا .

وهكذا استمر الشاب يصغى الى قلبه، بينما كان يشق طريقه وسط الصحراء، وتوصل الى أن يعرف حيله وخدعه، وانتهى الى أن يقبله على علاته. وعندها كف عن أن يخاف وكف عن الرغبة فى أن يعود ادراجه، لأن قلبه قال له ذات ليلة إنه سعيد: «لأنى حتى ولو شكوت الخوف، فما ذلك إلا لأنى قلب رجل وقد خلقت قلوب الرجال على هذه الشاكلة، هى تخشى تحقيق أروع أحلامها، لأنها تظن أنها غير جديرة بتحقيقها، أو أنها لا تستطيع بلوغها، ونحن القلوب نموت فرقا من فكرة أن يضيع حب الى الأبد، أو أن تتسرب لحظات كان يمكن أن تصبح رائعة، أو كنوز كان يمكن اكتشافها ولكنها تظل مطمورة فى الرمال، لأنه عندما يحدث شىء من ذلك، فإننا نتعذب عذابا رهيبا حتى النهاية».

قال الشاب للسيميائى فى ليلة راحا يراقبان فيها سماء غاب منها القمر:

– قلبى يخشى أن يتعذب .

- قل له إن الخوف من العذاب أسوأ من العذاب نفسـه، وانه مـا من قلب تعذب وهو يسعى وراء أحـلامه، لأن كل لحظة من البـحث هى اقتراب من الله ومن الأبدية.

قال الشاب لقلبه :

- كل لحظة من البـحث هى لحظة اقتراب ، فـعندمـا كنت ابحث عن الكنز كـانت كل الأيام بديعة لأنـى كنت أعـرف أن كل سـاعـة تشكل جزءاً مـن حلم العـثور عليـه، وبينمـا أبحث عن كنزى، اكتـشـفت فى الطريق اشيـاء لم أكن أحلم قط بأن أصادفها لو لم تكن لدى الشجاعة لمحاولة أشياء مستحيلة على الرعاة.

وبعـدها ظل قلبـه فى سـلام عـصـر ذلك اليـوم بـأكمله، ونام فى تلك الليلة نومـا هادئا. وعندمـا اسـتيقظ بدأ قلبه يروى له أشيـاء عن روح العالم. قـال له إن كل إنسان سعيد هو إنسان يسكن الله قلبـه، وأنه يمكن للإنسـان أن يجد السـعادة فى ذرة رمل بسيطة من رمـال الصـحراء كمـا قال السـيميـائى. لأن ذرة الرمـل هى لحظـة من الخلق قـضـى الكـون مـلايين ومـلايين مـن السـنين لصنعـهـا، وقـال له قلبـه : «لكل إنسـان على سطح الأرض كنز ينتظره، ونحن القلوب نـادرا مـا نتكلم عن ذلك لأن النـاس كـفـوا عن الرغـبـة فـى العـثـور على هذه الكنوز.، نحـن مـا عدنـا نتكلم إلا للأطفـال الصـغار، ثم نـترك الحـيـاة بعـد ذلك تقود كل إنسان صـوب مـصيره. ومن سوء الحظ أن قلة من الرجـال تتبع الطريق الذى هيئ لها وهو طريق الأسطورة الذاتية وطـرق السـعادة ، أغلبـهم يرون العـالم محـفوفا بالخطر. ولهذا السـبب ذاته فإن العـالم يصـبح فى الواقـع شيئا محفوفا بالخطر ، ومن ثـم نبدأ نحـن القلوب نتكلم بصوت يخفت شيئا فشـيـئـا ولكننا لا نصـمت أبدا، ثم نتمنى أن تعـبر كلمـاتنا دون إصـغـاء لهـا،

فنحن لا نريد للناس أن يتعذبوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الذى أرشدناهم إليه».

– لماذا لا تقول القلوب للناس إنهم يجب أن يسعوا وراء أحلامهم؟

– لأن القلب هو الذى يتعذب أكثر فى هذه الحالة والقلوب لا تحب أن تتعذب.

ومنذ ذلك اليوم ظل الشاب يصغى الى قلبه، طلب اليه ألا يهجره أبدا وطلب اليه أن يتشبث بصدره عندما يبتعد عن أحلامه، وأن يعطيه إشارة الإنذار، وأقسم إنه سيأخذ حذره فى كل مرة يستمع فيها الى تلك الإشارة .

وتكلم فى تلك الليلة عن كل هذه الموضوعات مع السيميائى، الذى فهم أن قلب الشاب قد رجع الى روح العالم .

سأله الشاب : ما الذى يجب أن أفعله الآن ؟

– أكمل السير فى اتجاه الأهرام وواصل الانتباه الى العلامات. قلبك يستطيع الآن أن يدلك على الكنز .

– ذلك إذن هو الشىء الذى لم أكن أعرفه حتى الآن؟

– لا ، إن ما ينقصك معرفته حتى الآن هو ما يلى :

قبل أن يتحقق حلم ما ، فإن روح العالم ترغب فى أن تمتحن كل ما تم تعلمه على مدى الطريق، وهى لا تتصرف بهذه الطريقة لأنها تريد أن تمكر بنا وإنما حتى نتمكن من أن نستوعب أيضا، فى وقت حلمنا نفسه، الدروس التى نتعلمها ونحن فى سبيلنا الى الحلم، وتلك هى اللحظة التى يتخلى فيها معظم الناس عن أحلامهم. وذلك ما نسميه نحن بلغة الصحراء: الموت عطشا فى الوقت الذى يلوح فيه نخيل الواحة فى الأفق .

إن أى مسعى يبدأ دائما بحظ المبتدئ وينتهى باختبار الغالب .

وتذكر الشاب مثلا من بلده يقول إن أحلك اللحظات هي تلك التي تسبق بالضبط شروق الشمس .

بدت أول علامة محسوسة على الخطر منذ اليوم التالي. اقترب ثلاثة من المقاتلين وسألوا المسافرين وهم يقتربون عما يفعلانه في هذا المكان.

قال السيميائي : جئت اصطاد بصقري .

فقال أحد المحاربين لابد أن نفتشكما لنتأكد أنكما لا تحملان سلاحا .

ترجل السيميائي من على حصانه بهدوء تام وحذا الشاب حذوه.

سأل المقاتل حين رأى حافظة الشاب :

– لماذا تحمل كل هذه الأموال؟

– لكي أذهب الى مصر .

وعثر الرجل الذي كان يفتش السيميائي على قارورة صغيرة من الكريستال ممتلئة بسائل. وعلى بيضة زجاجية صفراء اللون. أكبر بقليل جدا من بيضة الدجاجة ، فسأله: ماهذا ؟

– حجر الفلاسفة واكسير الحياة، هما العمل الكبير للسيميائيين من يشرب من هذا السائل لا يمرض أبدا. وشذرة صغيرة من هذا الحجر تحيل أي معدن كان الى ذهب .

انفجر الرجال الثلاثة في ضحك مجلجل وشاركهم السيميائي الضحك. وجدوا رده فكاهيا للغاية، وتركاهما يرحلان دون مزيد من المضايقة مع كل ما كان بحوزتهما .، وبعد أن ابتعدوا بمسافة قليلة سأل الشاب صاحبه .

– هل أنت مجنون ؟ لماذا أجبتهم هكذا ؟

– لكي أظهر لك أحد قوانين العالم، قانون بالغ البساطة : عندما تكون أمام أعيننا كنوز عظيمة فنحن لا نلقي لها بالا، وهل تعرف السبب؟ لأن الرجال لا يؤمنون بالكنوز.

تابعا مسيرتهما فى الصحراء، ومع تعاقب الأيام أصبح قلب الشاب أكثر صمتا: لم تعد تشغله أمور الماضى أو المستقبل . قنع هو أيضا بأن يتأمل الصحراء وبأن يتشرب مع الشاب روح العالم، أصبح هو وقلبه صديقين حميمين لا يسع أحدهما أن يخون الآخر.

وعندما كان القلب يتكلم فإنما كان ذلك لكى يثير حمية الشاب ويشجعه حين يجد تلك الأيام الطويلة من الصمت ممثلة بشكل رهيب. وللمرة الأولى بدأ القلب يحدثه عن مزاياه العظيمة: عن الشجاعة التى أوتيها حين هجر شياهه وعاش أسطورته الذاتية، وعن الحماس الذى أثبته فى محل الكريستال .

وقال له شيئا آخر أيضا لم يلحظه الشاب من قبل أبدا: حدثه عن الأخطار التى نجا منها والتى لم ينتبه اليها أبدا، فذات مرة أخفى مسدس أبيه المحشو بالرصاص الذى اختلسه، والذى كان يجازف فى الواقع بأن يصيبه، وذكره بيوم مرض فيه فى عراء الريف وتقيأ ما فى جوفه، ثم استغرق فى النوم وقتا طويلا، بينما كان هناك على مسافة قصيرة اثنان من قطاع الطرق اعتزما سرقة خراف الشاب ثم قتله ، ولكن بما أن الراعى الصغير لم يظهر فقد انصرفا فى النهاية معتقدين أنه غير مساره، وسأل الشاب السيميائى :

– هل تساعد القلوب الناس دائما؟

– تساعد فقط من يعيشون أسطورتهم الذاتية، لكنها كذلك تساعد كثيرا الأطفال والمخمورين وفاقدى الوعى والشيوخ .

– هل معنى ذلك إذن أنه لا وجود للخطر ؟

– بل معناه فقط أن القلوب تفعل كل ما بوسعها .

وذات ليلة مرا قرب مخيم عشيرة مشتركة فى الحرب، كان هناك فى كل

مكان أعراب يرتدون ثيابا بيضاء رائعة وأسلحتهم جاهزة للاستخدام ، كان الرجال يدخنون النرجيلة ويتجاذبون أطراف الحديث ولم يعيروا اهتماماً كبيرا لهذين المسافرين .

قال الشاب عندما ابتعدا قليلا : لا يوجد ادنى خطر .

استشاط السيميائى غضبا :

– ثق بقلبك، ولكن لا تنس أنك فى الصحراء، عندما يشتبك الناس فى قتال فإن روح العالم تسمع هى أيضا الصرخات والمعارك، ما من شخص واحد بمنجى من كل ما يحدث تحت السماء .

وفكر الشاب لنفسه: «كل الأشياء شىء واحد فريد».

وكأنما أرادت الصحراء أن تثبت أن العجوز على حق، فقد ظهر فجأة فارسان خلف المسافرين، وقال أحدهما :

– لا يمكنكما المضى أبعد من ذلك، فأنتما فى منطقة تدور فيها المعارك .

قال السيميائى ناظرا فى عيون المحاربين مباشرة.

– لن أمضى إلى بعيد .

سكتا للحظات ثم سمحا للمسافرين بمواصلة الطريق .

راقب الشاب المشهد كله فى انبهار وقال للسيميائى

– لقد أخضعتهما بنظرتك .

– ذلك أن العين تبدى قوة الروح .

قال الشاب لنفسه «هذا صحيح»، فقد انتبه الى رجل وسط مخيم الجنود كان يثبت عينيه على السيميائى وعليه هو نفسه، ومع أنه كان بعيدا جدا بحيث يتعذر تبين ملامحه جيدا، فقد راود الشاب يقين مطلق بأن هذا الشخص يراقبهما.

وأخيرا، وبينما كان يستعدان لعبور سلسلة جبلية تمتد بعرض الأفق كله، قال السيميائي إنهما على مسيرة يومين من الأهرام . قال الشاب .

– أن كان يجب أن نفترق قريبا فلتعلمني السيمياء .

– أنت تعرف الآن ما تنبغي معرفته، لم يبق سوى أن تدخل في روح العالم وأن تكتشف الكنز الذي ادخرته لكل منا .

– ليس هذا ما أريد معرفته، أنا أتكلم عن تحويل الرصاص الى ذهب .

راعى السيميائي صمت الصحراء ولم يجب على الشاب الا في اللحظة التي توقفا فيها ليتناولا طعامهما قال :

– كل شيء في الكون يتطور، وأهل العلم يعرفون أن الذهب هو أكثر المعادن تطورا، لا تسألني عن السبب فإني أجهله. كل ما أعرفه هو أن ما تعلمنا إياه التقاليد حق دائما، ولكن الناس هم الذين جهلوا كيف يفسرون أقوال الحكماء على محملها الصحيح. وبدلا من أن يكون الذهب رمزا للتطور فقد أصبح شرارة للحروب .

– إن الأشياء تتكلم بعدة لغات . وقد رأيت صياح الجمال لا يعدو أن يكون صياحا. ثم إذا به يغدو علامة خطر، ثم يعود مجرد صياح.

لكنه سكت ، فلابد أن السيميائي يعرف هذا كله .

قال السيميائي : عرفت سيميائيين حقيقيين اعتكفوا في مختبراتهم وحاولوا أن يتطوروا مثل الذهب، وقد اكتشفوا حجر الفلاسفة وما هذا إلا لأنهم فهموا أنه عندما يتطور شيء فإن كل ما حوله يتطور على شاكلته، ونجح آخرون بالمصادفة في الاهتداء الى الحجر . وهؤلاء كانت لديهم الموهبة. كانت أرواحهم أكثر إرهافا من أرواح غيرهم من الناس، لكن هؤلاء لا يدخلون في الحساب لأنهم ندرة، وهناك آخرون ظلوا يبحثون عن الذهب فحسب، وهولاء لم يجدوا السر أبدا، نسوا أن للرصاص وللنحاس وللحديد

أساطيرهم الذاتية أيضا التى ينبغى أن ينجزوها . ومن يتدخل فى أساد الآخرين الذاتية بغير حق لن يكتشف قط أسطورته هو نفسه .

بدا وقع كلمات السيميائى كالنذير. انحنى والتقط من رمل الصحراء قوقعة وهو يقو ل .

– هنا كان البحر فيما مضى .

– لاحظت ذلك من قبل .

طلب اليه السيميائى أن يقرب القوقعة من أذنه، وكان الشاب قد فعل ذلك عشرات المرات فى طفولته، وسمع صخب البحر ، قال السيميائى .

– إن البحر يعيش دائما داخل هذه القوقعة لأن تلك هى أسطورتها الذاتية، وهو لن يغادرها أبدا الى أن تغمر الامواج من جديد هذه الصحراء.

ثم امتطيا جواديهما من جديد وانطلقا صوب أهرام مصر .

وكانت الشمس تميل الى المغيب عندما أعطى قلب الشاب اشارة بالخطر. كانا محاطين بكثبان عالية، ونظر الشاب الى السيميائى ولكن هذا لم يلحظ شيئا فيما يبدو. وبعد خمس دقائق لمحا أمامهما مباشرة فارسين، وقبل أن يتاح له أن يقول للسيميائى أى شىء كان الفارسان قد أصبحا عشرة، ثم مائة، ثم غطوا فى النهاية الكثبان بطول امتدادها .

كانوا هم المحاربين الذين يرتدون الثياب الزرقاء وتحيط بعمائمهم ثلاثة أشرطة سوداء، كانت ،وجوههم مغطاه بلثم زرقاء أخرى لا تبين سوى أعينهم .

وحتى على ذلك البعد كانت الأعين تظهر قوة الروح، وكانت تلك الأعين تتحدث عن الموت .

* * *

اقتيد المسافران حتى معسكر حربى قريب. ودفع جندى بالسيميائى وبالشاب الى داخل خيمة تختلف تماما عن تلك التى رآها فى الواحة . كان هناك قائد حربى يحيط به أركان حربه .

وقال أحد الرجال :

– هاهما الجاسوسان .

فقال السيميائى : لسنا سوى مسافرين .

– شوهدتما منذ ثلاثة أيام فى معسكر الأعداء وكنتما تتحدثان مع أحد المحاربين .

قال السيميائى: أنا رجل أسير فى الصحراء وأعرف النجوم لكنى لا أعرف أى شيء عن الجيوش ولا عن تحركات القبائل، كنت فقط دليلا لصديقى هذا حتى هنا .

سأل الرئيس: ومن يكون صديقك ؟

قال السيميائى: هو سيميائى ، يعرف قوى الطبيعة ويود أن يعرض على القائد قدراته الخارقة.

استمع الشاب فى صمت وانتابه الخوف .

سأل أحد الرجال : وماذا يفعل رجل غريب فى أرض غريبة؟

تدخل السيميائى قبل أن تسنح للشاب فرصة النطق بكلمة واحدة : أحضرت نقودا لأقدمها الى عشيرتكم .

انتزع حافظة الشاب وأعطى القطع الذهبية للرئيس الذى أخذها دون أن يقول شيئا. وجد فيها ما يكفى لشراء كم كبير من الأسلحة .

أخيرا سأله الأعرابى : من يكون السيميائى؟

– هو رجل يعرف الطبيعة والعالم، ولو أراد لدمر هذا المعسكر مستخدماً قوة الريح وحدها.

ضحك الرجال. كانوا معتادين على عنف الحرب ويعرفون أن الريح لا يّمكنها أن توجه ضربة قاتلة. ومع ذلك فقد شعر كل منهم بقلبه ينقبض فى صدره. كانوا بدوا صحراويين يخافون السحرة.

قال القائد: أود أن أرى شيئاً من هذا القبيل.

فرد السيميائى: يلزمنا ثلاثة أيام ثم سيحول نفسه إلى ريح لمجرد أن يظهر لكم مدى قدرته، وما لم ينجح فسنقدم لكم حياتنا طواعية تمجيداً لشرف قبيلتكم.

– أنت لا تستطيع أن تقدم لى ما أملكه بالفعل.

قال الزعيم ذلك بنوع من الغطرسة ولكنه وافق على أن يمنح المسافرين مهلة الأيام الثلاثة.

لم يستطع الشاب المرعوب أن يخطو خطوة واحدة وتعين على السيميائى أن يمسك بذراعه ليساعده على الخروج من الخيمة وهو يقول:

– لا تظهر لهم خوفك. هؤلاء رجال شجعان ويحتقرون الجبناء.

فقد الشاب القدرة على النطق ولم يجد صوته إلا بعد مدة وهما يسيران وسط المعسكر، ولم يكن هناك داع لحبسهما: اكتفى الأعراب بمصادرة حصانيهما، وهكذا كشف العالم مرة أخرى لغاته التى لا يعدها الحصر: فالصحراء التى كانت مسرحاً حراً وبلا حدود أضحت الآن سداً لا سبيل الى تخطيه، وقال الشاب:

– لقد أعطيتهم كل كنزى، كل ما نجحت فى كسبه خلال حياتى بأسرها!

– وفيم كان سيفيدك هذا لو أنك مت؟ لقد أنقذ مالك حياتك لثلاثة أيام، ونادراً ما ينفع المال فى تأجيل الموت.

لكن الرعب كان مستولياً على الشاب لا يترك له مجالاً للاستماع إلى أقوال حكيمة. لم يكن يعرف كيف سيحول نفسه الى ريح ولم يكن سيميائيا.

طلب السيميائى من أحد المقاتلين شايا وصب قليلاً منه فى قبضتى الشاب فسرت موجة من السكينة فى جسده بينما كان السيميائي يقول كلمات لم يستطع أن يفهمها. قال بصوت هادىء هدوءاً غريباً:

– لا تترك نفسك لليأس فهذا يحول بينك وبين الحوار مع قلبك.

– ولكنى لا أستطيع أن أحول نفسى إلى ريح.

– من يعش أسطورته الذاتية يعرف كل ما يحتاج الى معرفته، لا يوجد غير شىء واحد يمكن أن يجعل الحلم مستحيلاً، هو خوف الفشل.

– أنا لا أخاف الفشل، كل ما فى الأمر هو أنى لا أعرف كيف أتحول الى ريح.

– إذن فيجب أن تتعلم! حياتك تتوقف على ذلك!

– وإذا لم أستطع؟

– ستموت لأنك عشت أسطورتك الذاتية، وهذا أفضل من أن تموت مثل ملايين من البشر لم يعرفوا حتى بوجود الأسطورة الذاتية، ولكن لا تقلق فالموت عموماً يجعل الإنسان أكثر حرصاً على الحياة.

انقضى اليوم الأول، ودارت رحى معركة كبيرة فى الجوار، وجىء بعديد من الجرحى الى المعسكر، وفكر الشاب «لا شىء يتغير بسبب الموت، فقد استبدل بالمحاربين الذين ماتوا غيرهم والحياة تستمر».

وقال أحد المحاربين أمام جثمان واحد من رفاقه فى المعركة:

– كان يمكن أن تموت فيما بعد ياصديقي، كان يمكن أن تموت بعد أن يحل السلام، ولكنك كنت ستموت على أى حال فى آخر الأمر.

وقبيل الليل ذهب الشاب يبحث عن السيميائى الذى أحضر الصقر معه إلى الصحراء. وكرر قوله من جديد:

– لا أعرف كيف أحول نفسى إلى ريح.

- تذكر ما قلته لك: إن العالم ليس سوى الجزء المرئى من خلق الله، والسيمياء ماهى إلا أن تنقل كمال الروح إلى عالم المادة.

- ماذا تفعل الآن؟

- أطعم صقرى.

- إذا لم أنجح فى أن أحول نفسى إلى ريح فسنموت معاً، فما الجدوى من أن تطعم الصقر؟

- أنت الذى ستموت، أما أنا فأعرف كيف أحول نفسى إلى ريح.

فى اليوم الثانى تسلق الشاب إلى قمة صخرة قريبة من المعسكر، تركه الحراس يمر، كانوا قد سمعوا عن الساحر الذى يحول نفسه إلى ريح ولم يريدوا الاقتراب منه، ثم إن الصحراء كانت سداً لا يمكن اجتيازه.

قضى ما بعد ظهر ذلك اليوم الثانى بأكمله يراقب الصحراء، أصغى إلى قلبه، وأصغت الصحراء إلى الخوف الذى يسكنه.

كان كلاهما يتكلم اللغة نفسها.

فى اليوم الثالث دعا القائد الأعلى أهم جنوده إلى اجتماع وقال للسيميائى:

- هيا بنا نرى ذلك الشاب الذى يتحول الى ريح.

فرد عليه: هيا بنا!

قادهم الشاب الى المكان الذى ذهب اليه بالأمس، ثم طلب الى الجميع أن يجلسوا وقال لهم:

- سيتطلب هذا بعضاً من الوقت.

فرد عليه القائد الأعلى:

- لسنا متعجلين، نحن بدو من الصحراء.

بدأ الشاب ينظر الى الأفق الذى يواجهه، كانت هناك على البعد جبال

وكثبان وصخور ونباتات تتشبث بالحياة حيث يبدو استمرار الحياة بعيداً عن الخيال. وكانت هناك الصحراء التى جابها خلال شهور وشهور، والتى لم يعرف منها مع ذلك إلا جزءاً ضئيلاً. وفى ذلك الجزء الضئيل عرف انجليزيا وقوافل ومعارك بين العشائر، وواحة تضم خمسين ألف نخلة وثلاثمائة بئر.
سألته الصحراء:

– ماذا تريد منى؟ ألم نتأمل معاً بما فيه الكفاية بالأمس؟

– أنت تحتضنين فى مكان ما تلك التى أحب، وعندما أراقب رمالك الممتدة فإنى أراها هى أيضاً. أريد أن أعود إليها وأحتاج الى مساعدتك كى أتحول ريحا وأعود إليها.

– وماهو ذلك الحب؟

– الحب هو عندما يحلق صقر فوق رمالك، لأنه هو يراك ريفاً نضراً، وهو لا يرجع أبداً دون صيد، هو يعرف صخورك وكثبانك وجبالك، وأنت كريمة معه.

– منقار الصقر ينهش منى قطعاً، وذلك الصيد أطعمه أنا خلال سنوات وسنوات وأسقيه من القليل من الماء الذى أملك، وأدله على المكان الذى يمكن أن يجد فيه ما يأكل، ثم يأتى يوم فينقض الصقر من السماء فى الوقت الذى كنت أوشك فيه أن أشعر بعناق ذلك الصيد لرمالى. الصقر يأخذ ما جاهدت لكى ينمو.

– ولكن تلك كانت هى الغاية التي من أجلها أطعمت ذلك الصيد وربيته: لكى تقدمى للصقر غذاء، والصقر يقدم للإنسان غذاء، وسيغذى الإنسان ذات يوم رمالك التى سيولد منها الصيد من جديد، تلك سنة العالم.

– وهل هذا هو الحب؟

– نعم، هو هذا. هذا هو ما يجعل الصيد يتحول إلى صقر، والصقر إلى

إنسان، والإنسان إلى صحراء، هذا هو ما يجعل الرصاص يتحول إلى ذهب، وما يجعل الذهب يعود ليختبىء فى باطن الأرض.

قالت الصحراء: أنا لا أفهم كلماتك.

– إذن فافهمى على الأقل أنه في مكان ما وسط رمالك توجد امرأة تنتظرنى. ولكى ألبى نداءها فإني يجب أن أتحول إلى ريح.

ظلت الصحراء صامتة بضع لحظات قبل أن تقول:

– أنا أعطيك رمالى لكى تستطيع الريح أن تهب. أما أنا وحدى فلا أستطيع شيئاً، أطلب العون من الريح.

هبت نسمة خفيفة، وراقب رؤساء الحرب من بعيد ذلك الشاب الذى يتكلم لغة لا يعرفونها.

وابتسم السيميائى.

وصلت الريح بالقرب من الشاب ولامست وجهه. كانت قد سمعت حواره مع الصحراء، لأن الرياح عادة ما تعرف كل شيء، فهى تجوب العالم دون أن يكون لها موطن ميلاد ولا موطن موت.

قال لها الشاب: ساعدينى، فذات يوم سمعت منك صوت محبوبتى.

– من علمك أن تتكلم لغة الصحراء ولغة الريح؟

– هو قلبى.

كانت للريح أسماء كثيرة، وكانوا يسمونها هنا السيروكو، وكان العرب يعتقدون أنها تهب من أرض تغزر فيها المياه، يسكنها قوم من السود. وفى البلد البعيد الذى جاء منه الفتى كانوا يسمونها الرياح الشرقية، لأن الناس يعتقدون أنها تجلب رمال الصحراء وصيحات الحرب المغربية. ولعل الناس يعتقدون في مكان آخر بعيد عن ريفه الذى ترعى فيه الأغنام أن الريح تهب من الأندلس. لكن الريح لا تأتى من مكان ولا تذهب إلى غيره. وهذا هو

السر فى أنها أقوى من الصحراء. فربما أمكن ذات يوم زرع الأشجار فى الصحراء وجعلها ريفا ترعى فيه الأغنام، ولكن أحداً لن يصل أبداً إلى أن يخضع الرياح.

– لن تستطيع أبداً أن تصبح ريحاً. طبيعتى تختلف عن طبيعتك.

– هذا غير صحيح، فقد تعلمت أسرار السيمياء وأنا أجوب العالم معك. فى داخلى تعيش الريح والصحراء والبحار والنجوم وكل خلق فى الكون. صنعتنا جميعاً يد القدرة الواحدة، وتسرى فينا الروح نفسها. أريد أن أصبح مثلك، أقتحم كل مكان وأعبر البحار وأنتزع الرمال التى تخفى كنزى وأجلب إلى سمعى صوت محبوبتى.

– سمعت فى ذلك اليوم حوارك مع السيميائى، وكان يقول إن لكل شيء أسطورته الذاتية، لا يستطيع البشر أن يتحولوا إلى ريح.

– علمينى أن أصبح ريحاً لبضع لحظات، لكى نتحدث معاً عن القدرات التى لا يحدها شيء للبشر وللرياح.

ثار فضول الريح ووجدت فى ذلك شيئاً لا تعرفه. كانت تود أن تتحاور حول هذا الموضوع ولكنها لا تستطيع أن تحول إنساناً إلى ريح. ومع ذلك فهى تعرف كثيراً من الأشياء! فقد كونت الصحارى، وأغرقت أساطيل ودمرت غابات بأكملها وتسكعت فى مدن تضج بالموسيقى وبالأصوات الغريبة. لقد ظنت أنها لا تواجه أى حدود وهاهو الآن أمامها فتى يؤكد أن الريح يمكنها أن تفعل أشياء أخرى.

قال الشاب وقد أحس أن الريح توشك أن تسلم بما يطلب:

– ذلك ما يسمونه الحب. أى عندما يحب الكائن أن يصبح جزءاً من الخلق. عندما نحب لا نحتاج إلى أن نفهم ما يحدث لأن كل شيء يحدث

السر فى أنها أقوى من الصحراء. فربما أمكن ذات يوم زرع الأشجار فى الصحراء وجعلها ريفا ترعى فيه الأغنام، ولكن أحداً لن يصل أبداً إلى أن يخضع الرياح.

– لن تستطيع أبداً أن تصبح ريحاً. طبيعتى تختلف عن طبيعتك.

– هذا غير صحيح، فقد تعلمت أسرار السيمياء وأنا أجوب العالم معك. فى داخلى تعيش الريح والصحراء والبحار والنجوم وكل خلق فى الكون. صنعتنا جميعاً يد القدرة الواحدة، وتسرى فينا الروح نفسها. أريد أن أصبح مثلك، أقتحم كل مكان وأعبر البحار وأنتزع الرمال التى تخفى كنزى وأجلب إلى سمعى صوت محبوبتى.

– سمعت فى ذلك اليوم حوارك مع السيميائى، وكان يقول إن لكل شىء أسطورته الذاتية، لا يستطيع البشر أن يتحولوا إلى ريح.

– علمينى أن أصبح ريحاً لبضع لحظات، لكى نتحدث معاً عن القدرات التى لا يحدها شيء للبشر وللرياح.

ثار فضول الريح ووجدت فى ذلك شيئاً لا تعرفه. كانت تود أن تتحاور حول هذا الموضوع ولكنها لا تستطيع أن تحول إنساناً إلى ريح. ومع ذلك فهى تعرف كثيراً من الأشياء! فقد كونت الصحارى، وأغرقت أساطيل ودمرت غابات بأكملها وتسكعت فى مدن تضج بالموسيقى وبالأصوات الغريبة. لقد ظنت أنها لا تواجه أى حدود وهاهو الآن أمامها فتى يؤكد أن الريح يمكنها أن تفعل أشياء أخرى.

قال الشاب وقد أحس أن الريح توشك أن تسلم بما يطلب:

– ذلك ما يسمونه الحب. أى عندما يحب الكائن أن يصبح جزءاً من الخلق. عندما نحب لا نحتاج إلى أن نفهم ما يحدث لأن كل شىء يحدث

بداخلنا ويمكن للبشر أن يتحولوا إلى ريح، بشرط أن تساعدهم الريح بطبيعة الحال.

كانت الريح مغرورة جداً، وأقلقها ما قاله الشاب. بدأت تهب بعنف أشد مثيرة رمال الصحراء، ولكن كان عليها أن تسلم بأنها حتى بعد أن جابت العالم كله، فهي لا تعرف بعد كيف تحول رجلاً إلى ريح. ثم إنها لا تعرف الحب.

- لاحظت خلال تجوالي في العالم أن الناس يتكلمون عن الحب وهم يتطلعون إلى السماء.

قالت الريح ذلك في غضب لأنها اضطرت أن تعترف بحدود تلزمها، وأكملت:

- الأفضل إذن أن توجه طلبك للسماء.

- إذن فساعديني. أغمري ذلك المكان بالغبار حتى أنظر للشمس دون أن يعشى بصري.

عندئذ بدأت الريح تهب بعنف بالغ وحجبت بالرمال وجه السماء فلم يبق في موضع الشمس غير قرص مذهب.

أصبح عسيراً على العسكر تمييز أي شيء، وكان البدو يعرفون جيداً هذه الريح التي يسمونها السموم والتي هي أسوأ من عواصف البحر، غير أنهم ما كانوا يعرفون البحر.

صهلت الخيول، وبدأت الرمال تغطي الأسلحة.

وفوق الصخرة التفت أحد الضباط وقال لقائده الأعلى:

- ربما يحسن أن نتوقف عند هذا الحد.

كان من المتعذر عليهم الآن بالفعل أن يروا الشاب، وصارت كل الوجوه

مقنعة تماماً باللثم الزرقاء ولم تعد العيون تعبر سوى عن الرعب. وألح ضابط آخر:

- فلننته من ذلك.

قال القائد الأعلى وفى صوته خشوع:

- أريد أن أرى قدرة الله العظيم. أريد أن أرى رجلاً يتحول إلى ريح.

ولكنه سجل فى ذهنه اسمى هذين الضابطين الخائفين. فبمجرد أن تهدأ الريح سيعزلهما من القيادة، فلا يحق لبدو الصحراء الخوف.

خاطب الفتى الشمس قائلاً:

- أنبأتنى الريح بأنك تعرفين الحب، وإن كنت تعرفين الحب فأنت تعرفين أيضاً روح العالم لأن قوامها الحب.

ردت الشمس:

- أستطيع من مكانى أن أرى روح العالم. هى على صلة بروحى ونحن نعمل معاً على أن ينمو النبات ونسوق الشياه التى تبحث عن الظل. ومن مكانى (وأنا بعيدة جداً عن الأرض) تعلمت أن أحب. أنا أعرف أنى لو اقتربت قليلاً جداً من الأرض فسيفنى كل ما عليها وستزول روح العالم. ومن هنا فإن كلا منا تراعى الأخرى ونحن نتبادل الحب. أهبها أنا الحرارة والحياة وتهبنى هى مبرر الوجود.

كرر الشاب: أنت تعرفين الحب.

- وأعرف روح العالم لأننا تبادلنا حوارات مطولة على مدى تلك الرحلة التى لا نهاية لها حول العالم. فهى تقول لى إن أكبر مشكلة لها أن المعادن والنباتات فحسب هى التي فهمت، حتى الآن، أن جميع الأشياء شيء واحد، وإن لم يكن من الضرورى أن يشبه الحديد النحاس أو النحاس الذهب. فكل يؤدى وظيفته بالضبط ضمن هذا الشيء الواحد، وكل شيء كان سيصبح

سيمفونية من السلم لو قضت مشيئة اليد التى خطت كل ذلك بالتوقف فى اليوم الخامس.

غير أنه كان هناك يوم سادس.

– أنت عليمة بالأمور لأنك ترين كل شيء من بعيد. ولكنك لا تعرفين الحب. لأنه لو لم يكن هناك اليوم السادس لما كان الإنسان، ولظل النحاس نحاساً والرصاص رصاصاً إلى الأبد. لكل شيء أسطورته الذاتية، هذا صحيح، ولكن ذات يوم ستستوفى هذه الأسطورة غايتها، فلابد إذن من التحول إلى شيء أفضل، وأن تكون هناك أسطورة ذاتية جديدة إلى أن تصبح روح العالم حقاً وصدقاً شيئاً واحداً وفريداً.

ظلت الشمس تفكر واشتد توهجها. أما الريح التى كانت تنصت للحوار بشغف، فقد اشتد هبوبها أيضاً لكى لا تعشي الشمس بصرَ الشاب الذى قال:

– ومن أجل هذا فالسيمياء هى أن يبحث كل إنسان عن كنزه ثم يجده، ثم يود أن يصبح أفضل مما كان فى حياته من قبل. الرصاص يؤدى دوره إلى أن يستغنى العالم عن حاجته للرصاص، فلابد أن يتحول إلى ذهب. والسيميائيون يتوصلون إلى تحقيق ذلك التحول. يبينون لنا أننا عندما نسعى إلى أن نصبح أفضل مما نحن عليه، فإن كل شيء من حولنا يصير أفضل أيضاً.

سألته الشمس: ولماذا تقول إننى لا أعرف الحب؟

– لأن الحب لا يعنى الركون إلى الثبات مثل الصحراء، ولا الطواف حول العالم مثل الريح، ولا رؤية كل شيء من بعيد مثلك. الحب هو القوة التى تحول العالم وتجعل روح العالم أفضل. عندما اندمجت فيها للمرة الأولى

ظننت أنها كاملة لا يشوبها نقص ولكنى رأيت بعد ذلك أنها انعكاس لكل ما تم خلقه وأن لها أيضاً حروبها وأهواءها.

نحن الذين نغذى روح العالم وستصبح الأرض التى نعيش عليها أفضل أو أسوأ حسب حالنا نحن وما نصير إليه إن كان أفضل أو أسوأ. وهنا تتدخل قوة الحب، لأننا عندما نحب نود دائماً أن نصبح أفضل مما نحن عليه.

– وماذا تريد منى؟

– أن تساعدينى على أن أتحول إلى ريح.

– الطبيعة تعرف أننى أكثر المخلوقات علماً، ولكنى لا أعرف كيف أحولك إلى ريح.

– وإذن فإلى من يجب أن أتوجه؟

سكتت الشمس لحظة، وأنصتت الريح. ستنتشر فى العالم كله أن لعلم الشمس حدوداً. ولم تستطع هذه مع ذلك أن تتهرب من الشاب الذى كان يتكلم لغة العالم.

قالت له الشمس: توجه إلى يد القدرة التى خطت كل شىء.

أطلقت الريح صيحة راضية وهبت بأعنف ما لديها. انتزعت أوتاد الخيام. المنصوبة فتطايرت وتحرر كل حيوان من عقاله . وعلى الصخرة تشبث الرجال ببعضهم البعض لكى لا يطاح بهم .

توجه الشاب بقلبه إلى اليد التى خطت كل شىء فعمرته موجة من الحب وبدأ يصلى . كانت صلاة لم يعرفها قط ، لأنها كانت صلاة دون كلمات ولم يطلب بها شيئا . لم يرفع شكراً لأنه استطاع أن يجد المرعى لغنمه ؛ لم يطلب أن يبيع مزيداً من الكريستال، لم يطلب أن تنتظر الفتاة التى قابلها عودته .. ففى الصمت الذى ساد أدرك أن الصحراء والريح والشمس تنتظر

هى أيضا العلامات التى خطتها يد القدرة . وأنها تريد أن تتبع مساراتها إلى أن تدرك ما هو محفور على زمّردة بسيطة. وأدرك أن تلك العلامات مبثوثة فى الأرض وفى الفضاء ، وأنها تبدو فى ظاهرها بدون مبرر ولا مغزى ، فلا الرياح ولا الصحارى ولا الشموس ولا البشر يفهمون السبب الذى من أجله خلقت ، ولكن يد القدرة هى التى جعلت لكل شىء سببا وهى وحدها التى تصنع المعجزات وتحول البحار إلى صحارى والبشر إلى رياح ، لأنها هى التى تعرف التدبير الذى يسوق العالم إلى غاية تتحول فيها أيام الخلق الستة إلى العمل الكبير .

انغمس الشاب فى روح العالم، ورأى أن روح العالم فيض من روح الله وحين أدرك الشاب ذلك ، عرف أنه يستطيع الخوارق .

وفى ذلك اليوم هبت ريح السموم كما لم تهب أبدا . ولأجيال سيظل الأعراب يحكون أسطورة الشاب الذى تحولّ ريحا وأوشك أن يسحق معسكرا ، متحديا سلطة أعظم زعيم حربى عرفته الصحراء .

كفت ريح السموم عن الهبوب ، وتوجه الجميع بأبصارهم إلى البقعة التى كان يقف فيها الشاب . لكنه لم يكن هناك ، بل كان إلى جوار حارس تكاد الرمال تغمره يرصد الجهة المقابلة من المعسكر .

أصاب الرجال رعب من ذلك السحر ، ولكن كان هناك رجلان يبتسمان : السيميائى لأنه وجد تلميذه الحق ، والقائد الأعرابى لأن ذلك الشاب قد خشع لمجد الله سبحانه .

وفى اليوم التالى ودع القائد الشاب والسيميائى ، وأوفد حرساً يصاحبهما إلى الجهة التى يقصدانها .

* * *

ساروا طيلة النهار ، وعندما حل الليل صرف السيميائى الحرس ، وكانا قد وصلا بالقرب من أحد الأديرة . ترجل السيميائى وقال الشاب .

– بدءاً من هنا ستمضى وحدك . لاتفصلك عن الأهرام سوى مسيرة ثلاث ساعات .

– شكرا لك . لقد علمتنى لغة العالم .

– لم أفعل سوى أنى ذكرتك بما كنت تعرفه بالفعل .

طرق السيميائى باب الدير ففتحه راهب يرتدى السواد ، تفاهم السيميائى معه لحظة ثم أدخل الشاب وهو يقول :

– طلبت منه أن يأذن لى باستخدام المطبخ لحظة .

دخلا إلى مطبخ الدير وأوقد السيميائى ناراً ، وأحضر الراهب بعضا من الرصاص راح السيميائى يصهره فى وعاء من الحديد . وعندما ذاب الرصاص أخرج السيميائى من حقيبته تلك البيضة الزجاجية الصفراء الغريبة ، وكشط منها شذرة فى سمك الشعرة غلفها فى شمع ورمى بها فى الوعاء الذى يحوى الرصاص المذاب ، فاصطبغ المزيج بحمرة قانية . عندها سحب السيميائى الوعاء من فوق النار وتركه يبرد . وفى انتظار ذلك أخذ يتحدث إلى الراهب عن حرب العشائر :

– هى حرب ستستغرق وقتا .

كان الراهب قلقا . فمنذ مدة طويلة والقوافل مقيدة فى الجيزة تنتظر نهاية الحرب ، وقال بعد فترة :

– ولكن فلتكن مشيئة الربّ .

ورد السيميائى : نعم فلتكن مشيئته .

وعندما برد المزيج تطلع إليه الراهب والشاب فى انبهار : كان المعدن قد تجمّد فى باطن الوعاء ، ولكنه لم يعد رصاصاً . كان ذهباً .

سأل الشاب : هل بوسعى أن أتعلم ذات يوم أن أصنع مثل هذا ؟

رد السيميائى : تلك هى أسطورتى الذاتية لا أسطورتك ولكنى أردت أن أبرهن لك أن هذا ممكن .

رجعوا إلى باب الدير وقسم السيميائى القرص إلى أربعة أجزاء ، قدم جزءاً منها للراهب قائلا :

– هذا من أجل كرمك للغرباء .

فرد الراهب :

– هذا شكر يتجاوز كرمى بكثير .

وقال السيميائى : لا تقل هذا . فقد تستمع الحياة إلى ما تقوله فتعطيك فى مرة أخرى ما هو أقل .

ثم اقترب من الشاب وقال :

– وهذا لك ، لكى يعوض الذهب الذى استولى عليه قادة الحرب .

أوشك الشاب أن يقول إن هذا أكثر بكثير مما فقده ، ولكنه سكت حين تذكر ما قاله السيميائى للراهب .

وقال السيميائى :

– أما هذا الجزء فلى ، لأنى يجب أن أعود مخترقا الصحراء من جديد ، والحرب مازالت دائرة بين القبائل .

ثم أخذ الجزء الرابع وأعطاه للراهب وهو يقول :

– وهذا الجزء لهذا الفتى إن احتاج إليه .

قال الشاب : ولكنى سأعثر على كنزى ، وأنا الآن قريب منه جداً .

فقال السيميائى : أنا واثق تماماً أنك ستعثر عليه .

– وإذن فلم هذا الجزء الإضافى ؟

– لأنك حتى الآن فقدت مرتين ما كسبت من مال خلال رحلتك – مرة مع

اللص ومرة مع القائد الحربى ، وأنا أعرابى عجوز متطير أؤمن بأمثلة قومى، ومنها مثل يقول «كل ما يحدث مرة واحدة قد لا يتكرر أبدا ، ولكن ما يحدث مرتين لابد له من ثالثة» .

ثم امتطيا صهوتى جواديهما .

– قال : السيميائى : أود أن أحكى لك قصة بمناسبة الأحلام .

اقترب منه الشاب بحصانه، فتابع السيميائى .

كان فى روما القديمة فى عهد الامبراطور تابير يوس رجل طيب جدا له ولدان : احدهما جند فى الجيش وارسل الى ابعد مقاطعات الامبراطورية . أما الابن الثانى فكان شاعرا فتن روما بجمال القصائد التى كان يكتبها .. وذات ليلة رأى الأب حلما . أتاه ملاك ليقول له إن كلمات أحد ولديه سيذيع أمرها وستردها كل الأجيال اللاحقة فى العالم أجمع . صحا الرجل وهو يبكى من الفرحة لأن الحياة أسبغت عليه هذا الكرم ولأن الرؤيا واتته بما يملأ بالفخر جوانح أى أب .

وبعد وقت قصير مات الأب وهو يحاول أن ينقذ حياة طفل اوشكت ان تدهسه عجلات إحدى العربات . وبما أنه كان يسلك طول حياته مسلكا صالحا ومستقيما فقد ذهب الى الجنة مباشرة والتقى هناك بالملاك الذى أتاه فى الحلم ، والذى قال له :

لقد كنت رجلا صالحا، عشت محبا ومتّ شهما ، واليوم أستطيع أن احقق لك أيا من رغباتك .

فرد العجوز لقد كانت الحياة كريمة معى. عندما أتيتنى فى الحلم ادركت أنى جوزيت خيرا على ما عملت فى الحياة لأن أشعار ولدى ستعيش فى ذاكرة البشر طوال القرون الآتية : ليس لدى ما أطلبه لنفسى ، لكن كل أب

يزهو فخرا بأن يرى شهرة ذلك الذى رعاه طفلا والذى علمه فتى. أود أن أرى كلمات ولدى . وهى تتردد فى مستقبل بعيد .

ربت الملاك على كتف العجوز . وانطلقا معا إلى المستقبل البعيد.

ظهر أمامهما ميدان واسع يتكلم فيه الاف البشر لغة غريبة .

اغرورقت عينا العجوز بدموع الفرح وقال للملاك :

– كنت أعرف أن أشعار ولدى جميلة وخالدة ، اتستطيع أن تخبرنى أيا من قصائده يرددها هولاء الناس ؟

عندئذ امسك به الملاك برقة بالغة ، وجلسا معا على دكة فى ذلك الميدان الواسع وقال له :

– لقد كانت قصائد ابنك الشاعر رائجة جدا فى روما ، أحبها الناس جميعا واستمتعوا بها، لكنهم بعد أن انتهى عصر تابيريوس نسوها .

أما الكلمات التى يرددها هؤلاء الناس فهى لا بنك الآخر ، الجندى.

نظر العجوز فى دهشة الى الملاك الذى استمر :

– لقد ذهب ابنك للخدمة فى مقاطعة نائية واصبح قائد مائة . وهو ايضا كان رجلا صالحا ومستقيما . وذات ليلة اصاب المرض واحدا من خدمه وأوشك على الموت . وسمع ابنك عندئذ عن رجل ربانى يشفى المرضى. وقضى أياما متتابعة يبحث عنه . وخلال رحلة بحثه اكتشف أن الرجل الذى يبحث عنه هو المسيح. قابل اشخاصا آخرين كتب لهم الشفاء على يديه ، وبدأ يهتدى ، ومع كونه قائد مائة رومانيا فقد غير ديانته . وذات يوم وصل إلى حضرة الرجل الربانى ، أخبره أن واحدا من خدمه مريض، فقال الربانى إنه مستعد لمصاحبته حتى بيته . ولكن قائد المائة كان رجل إيمان ، أمعن النظر فى عينى الرجل وأدرك أنه حقا وصدقا أمام المسيح .

ثم أكمل الملاك قوله للرجل العجوز - وتلك هي كلمات ولدك . الكلمات التى قالها للربانى فى تلك اللحظة والتى لم يغيبها النسيان أبدا :

«يا سيد لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفى ، لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامى » (*) .

وتقدم السيميائى بحصانه قليلا وهو يقول للشاب :

- لكل إنسان على سطح الأرض ، أيا كان ، دور رئيسى فى تاريخ العالم ، وفى العادة فهو لا يدرك ذلك .

ابتسم الشاب ، فهو لم يكن يتخيل أبداً أن الحياة يمكن أن تولى مثل هذه الأهمية إلى راع .

قال السيميائى : وداعا !

فرد عليه : وداعاً .

* * *

(*) إنجيل متى: الإصحاح ٧ - المترجم .

ظل يتقدم في الصحراء قرابة ساعتين ، محاولاً أن يصغي بانتباه إلى ما يقوله قلبه ، فهو الذى سيكشف له بدقة عن المكان الذى اختفى فيه كنزه . ألم يقل له السيميائى «سيكون كنزك حيث يكون قلبك» ؟

لكن قلبه كان يتحدث عن أشياء أخرى – ظل يحكى مزهوا حكاية راع ترك غنمه ليتبع حلما رآه مرتين ، وتحدث عن الأسطورة الذاتية وعن كل هؤلاء الرجال الذين فعلوا الشيء نفسه، الذين رحلوا بحثا عن أراض بعيدة أو عن نساء جميلات ، والذين واجهوا آراء أناس عصرهم وأحكامهم الجامدة . وطوال تلك المسافة ظل القلب يتحدث عن الاكتشافات وعن الكتب وعن الانقلابات .

ولكن بينما كان يستعد لأن يتسلق تلا ، وفي تلك اللحظة فحسب ، همس قلبه فى أذنه «انتبه جيدا إلى المكان الذى ستبكى فيه ، لأنى هناك أكون ، وهناك يكون كنزك» .

بدأ يتسلق ببطء ، واستضاءت السماء التى كانت مزدحمة بالنجوم ببدر كامل من جديد : لقد سار شهراً كاملا فى الصحراء . أضاء القمر التل أيضا ، فى مناورة مع الظلال أعطت الصحراء مظهر بحر فائر الأمواج ، ذكر الشاب بتلك الليلة التى أرخى فيها لحصانه العنان وأعطى فيها للسيميائى العلامة التى طلبها . وأخيرا فقد غلف نور القمر صمت الصحراء وتلك الرحلة الطويلة التى يقطعها الرجال بحثاً عن الكنوز .

وعندما وصل بعد لحظات إلى قمة التل راح قلبه يخفق فى صدره . فهناك كانت تنتصب فى نور القمر المكتمل بدرا ، ووسط الصحراء البيضاء ،

وأمام عينيه في شموخ ومهابة أهرام مصر .

ركع على ركبتيه وبكى . حمدا لله لأنه صدق أسطورته الذاتية ، ولأنه قابل ذات يوم ملكا ، ثم تاجرا ، ثم إنجليزيا ، ثم سيميائيا ، وحمده قبل كل شيء لأنه قابل امرأة من الصحراء جعلته يفهم أن الحب لا يمكن أن ينأى بإنسان أبداً عن أسطورته الذاتية .

على مدى القرون ظلت الأهرام تتأمل من عليائها ما يرقد تحت سفحها . ولو أنه أراد الآن فبوسعه أن يرجع إلى الواحة وأن يتزوج فاطمة ويعيش كراع بسيط للغنم . فالسيميائي يعيش في الصحراء رغم أنه يفهم لغة العالم، ورغم أنه يعرف كيف يحول الرصاص ذهبا . لم يكن بحاجة إلى أن يظهر لكائن من كان علمه وفنه .

وقد تعلم أثناء مسيرته صوب أسطورته الذاتية كل ما كان بحاجة إلى أن يتعلمه وعاش كل ما كان يحلم أن يعيشه .

لكنه قد وصل إلى كنزه . وما من عمل يتم إلا ببلوغ غايته . وهنا ، عند قمة هذا التل قد بكى . نظر إلى الأرض في الموضع الذي سقطت فيه دموعه فوجد جعرانا يتحرك . وكان قد علم خلال تجواله في الصحراء أن الجعران في مصر رمز مقدس .

هاهي إذن علامة أخرى . وهكذا فقد شرع يحفر ، وتذكر ما قاله له تاجر الكريستال . حتى ولو قضى الإنسان حياته بأكملها يكدس الأحجار فلن يصل أبداً إلى أن يبني هرما في حديقته .

ظل يحفر طول الليل في الموضع المحدد دون أن يجد شيئاً . ومن فوق

الأهرام كانت القرون تراقب فى صمت ، لكنه لم يتراجع . أخذ يحفر ويحفر دون كلل ، مكافحا الرياح التى عاودت أكثر من مرة غمر حفرته بالرمال . وكلت يداه ، ثم انتشرت فيها الجروح ، لكنه ظل يصدق قلبه . وقد قال له قلبه أن يحفر حيث تسقط دموعه .

وفجأة بينما كان يحاول أن ينتزع بعض الأحجار التى زحزحها فى باطن الأرض استمع إلى صوت أقدام . اقترب منه بعض رجال وكانوا فى عكس اتجاه ضوء القمر فلم يستطع أن يرى عيونهم ولا وجوههم .

سأله أحد الوافدين : ماذا تفعل هنا ؟

لم يرد ولكنه كان خائفاً ، فأمامه الآن أن يخرج كنزا من باطن الأرض ولهذا فقد كان خائفا .

قال آخر : نحن لاجئون من الحرب . ولابد أن نعرف ما الذى تخفيه هنا. نحن بحاجة إلى مال .

رد الشاب : أنا لا أخفى شيئاً .

لكن أحد الرجال انتزعه من الحفرة وشرع آخر يفتشه ووجدوا قطعة الذهب فى أحد جيوبه .

قال أحد المهاجمين : معه ذهب .

أضاء نور القمر وجه من كان يفتشه ورأى فى عينيه الموت.

وقال آخر :

– لابد أنه يخفى المزيد من الذهب فى الأرض .

أرغموه على أن يواصل الحفر . أنهم لم يجدوا شيئاً فقد بدأوا يضربونه..

أنهالوا عليه ضربا وقتا طويلاً حتى ظهرت أول أشعة الشمس . تمزقت ثيابه وشعر بدنو أجله.

«ما فائدة المال إن كان على الإنسان أن يموت ؟ نادرا ما ينجح المال فى أن ينقذ إنسانا من الموت» : كانت تلك كلمات السيميائى .

أخيرا قال : أنا أبحث عن كنز.

وبالرغم من الجروح التى أصابت فمه الذى تورم من وقع الضربات عليه، فقد روى لمهاجميه أنه حلم مرتين بكنز مطمور بالقرب من أهرام مصر..

ظل من كان يبدو عليه أنه الزعيم صامتا لفترة طويلة ثم خاطب أحد أتباعه :

– يمكن أن نتركه لحاله ، فليس معه شئ آخر . ولابد أنه قد سرق هذا الذهب.

هوى الفتى على الأرض ووجهه فى الرمل . وكانت هناك عينان تفتشان عن عينيه . كان ذلك زعيم العصابة ولكن الفتى صوب بصره إلى الأهرام.

قال الزعيم لرفاقه : فلننصرف من هنا .

لكنه رجع إلى الشاب وقال له :

– لن تموت : ستعيش وستتعلم أن الإنسان يجب ألا يكون غبيا إلى هذا الحد . فمنذ قرابة عامين ، وهنا بالضبط حيث ترقد أنت الآن، حلمت حلما وتكرر ،، رأيت أننى يجب أن أذهب إلى أسبانيا وأن أفتش فى الريف عن كنيسة محطمة كثيرا ما يذهب الرعاة للمبيت فيها مع اغنامهم وتنمو فى موضع هيكلها شجرة جميز . وهناك سأجد كنزا مطمورا . لكنى لست من

الغباء بحيث أعبر الصحراء لأنى رأيت الحلم نفسه مرتين.

ثم أنصرف.

نهض الشاب بمشقة ونظر مرة أخرى إلى الأهرام كانت الأهرام تبتسم له وبادلها الابتسام ، وقلبه مفعم بالغبطة .

لقد وجد كنزه !

* * *

خاتمة

كان اسمه سانتياجو ، ووصل إلى الكنيسة الصغيرة المهجورة بينما كان الليل على وشك أن يحل . كانت شجرة الجميز تترعرع فى موضع الهيكل ، وكان بوسع الانسان أن يرى النجوم من خلال السقف نصف المحطم . وتذكر أنه جاء هنا ذات مرة مع شياهه وقضى ليلة هادئة ، باستثناء حلم راوده.

وها هو الآن دون قطيع الغنم ولكن معه جاروفا .

ظل لمدة طويلة يتأمل السماء ، ثم أخرج من جرابه زجاجة نبيذ وشرب منها ، فكر فى كل الطريق الذى قطعه ، وفى الطريقة الغريبة التى دلته بها السماء على كنزه ، فلو أنه لم يصدق الأحلام التى تتكرر لما قابل الغجرية ، ولا الملك ، ولا اللص ، ولا .. «ولكن القائمة طويلة ، غير أن الطريق كان مرسوما بالعلامات ، ولم يكن بوسعى أن أخطئ ».

استغرق فى النعاس دون أن يشعر ، وعندما استيقظ كانت الشمس قد أشرقت منذ مدة فشرع يحفر تحت شجرة الجميز .

وقال لنفسه «أيها الساحر العجوز ! لقد كنت تعرف كل شئ . بل وتركت لى قليلا من الذهب لأتمكن من العودة إلى هذا المكان . ضحك الراهب بالفعل حين ظهرت أمامه بثيابى المهلهلة . ألم يكن بوسعك أن تجنبنى هذا ؟».

سمع الريح تجيبه «لا . فلو أنى أخبرتك لما رأيت الأهرام ، وهى آية فى الروعة ألا ترى ذلك ؟».

كان ذلك صوت السيميائى ، فابتسم واستأنف الحفر . وبعد نصف ساعة اصطدم الجاروف بشئ صلب . وبعد ساعة كان أمامه صندوق ممتلئ حتى

حافته بعملات ذهبية أسبانية قديمة ، وكانت هناك أيضاً أحجار كريمة وأقنعة ذهبية مرشوق فيها ريش أبيض وأحمر ، وتماثيل حجرية صغيرة مرصعة بالماس . كانت بقايا حملة نسيتها البلاد منذ زمن طويل ، وأهمل الغزاة روايتها لأحفادهم .

أخرج من جرابه حجر مجرى أوريم وتوميم ، لم يستخدم هذين الحجرين سوى مرة واحدة فى السوق ذات صباح ، بعدها كانت الحياة ومسيرته عامرتين بالعلامات.

وضع أوريم وتوميم داخل صندوق الذهب . كان هذان الحجران أيضاً جزءاً من كنزه ، لأنهما يسجلان ذكرى ذلك الملك العجوز الذى لم يقابله أبداً..

وفكر أن الحياة سخية حقا لمن يعيش أسطورته الذاتية.

ثم تذكر أنه يجب أن يذهب إلى تاريفا وأن يعطى العشر من ذلك كله للغجرية . وقال لنفسه «ما أشد دهاء الغجر ! ربما لأنهم يرحلون كثيرا ..»

ولكن الريح بدأت تهب . كانت هى الريح الشرقية القادمة من أفريقيا . لم تكن تحمل رائحة الصحراء ولا التهديد بغزو مغربى.

كانت تحمل بدلا من ذلك عطراً يعرفه جيداً ، وهى قبلة تهادت برقة ، بمنتهى الرقة ، حتى لمست شفتيه.

وابتسم . كانت هى المرة الأولى التى تفعلها فقال :

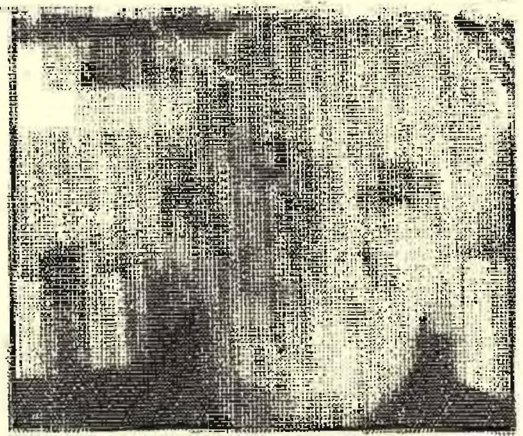
– ها أنذا يا فاطمة ! إنى قادم .

تمت

رقم الايداع ٥٢١٩/١٩٩٦

I. S. B. N

977 - 07 - 0485 - 7



باولو كويليو

- روائي برازيلي ولد في عام ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، وعاش منذ صباه حياة مليئة بالأحداث الصعبة والمثيرة، إذ أدخله والده مصحة للأمراض النفسية وعولج بالصدمات الكهربائية، وتعرض في فترة دراسته الجامعية للاعتقال والتعذيب على يد الشرطة السرية، ودرس فنون السحر وانضم إلى إحدى جمعياته.
- في مطلع الثمانينات تفرغ للأدب، وبعد محاولته الأولى حقق نجاحاً باهراً حين نشر رواية السيميائي التي باعت الملايين.
- له عديد من الروايات أفاد فيها من تجاربه في الحياة مثل «فيرونيكا تقرر أن تموت»، و«الفالكيريات» (ربات النعمة)، و«إحدى عشرة دقيقة».. الخ. وتتصدر رواياته باستمرار قائمة أفضل الكتب المبيعة.

المترجم: بهاء طاهر

- أديب ومترجم وإعلامي مصري، درس الآداب والإعلام في جامعة القاهرة.
- نشر أول مجموعة قصصية له (الخطوبة) في عام ١٩٧٢، وهي المنشورة في دار الهلال مع مجموعة أعمال مثل «بالأمس حلمت بك»، و«الحب في المنفى»، و«نقطة النور» وغيرها.
- تلقى أعماله إقبالاً كبيراً من القراء، وفاز بجائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٨، وعلى جائزة «انشيريتي» الإيطالية عن رواية «خالتي صفية والدير» كأفضل رواية مترجمة عام ٢٠٠٠.

هذه الرواية

رواية السيميائى كعمل أدبى قصة خارقة للمألوف. صدرت باللغة البرتغالية لأول مرة فى عام ١٩٨٨ فلم تحقق نجاحاً يذكر وباعت أقل من ألف نسخة. أعيد طبعها بعد عامين فتهافت عليها القراء فى البرازيل، وترجمت إلى الانجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الأوروبية فتصدرت قائمة المبيعات فى كل مكان من أوروبا حيثما صدرت، ثم اكتسحت ترجماتها العالم شرقاً وغرباً فصدرت حتى الآن فى قرابة ستين لغة، وبيع منها حتى نهاية القرن الماضى ٢٧ مليون نسخة فى ١٥٠ بلداً مما جعلها أكثر الروايات البرازيلية رواجاً عبر التاريخ، وأكثر الروايات المعاصرة انتشاراً فى العالم. يقول كثير من القراء إنهم يعودون إلى قراءتها مراراً وإنهم يكتشفون فيها فى كل مرة جديداً.

لا عجب. فهذه الرواية بحث عن كنز. كنز حقيقى فى الصحراء وكنز أثمن فى داخل قلب الإنسان تبدو فيه المعجزات قريبة المنال، وإرادة الإنسان أقوى من الخيال، والحب قوة هائلة تجعل الإنسان أكبر من نفسه متى أصغى إلى قلبه.

سوف تلتقى فى هذه الرواية الفاتنة بمواقف وعبارات لا تنسى محكية بسلاسة وبساطة آسرة، وفى ترجمة خلابة تنسجم لغتها مع عالم الرواية الفانتازى وسيدهشك حين تخوض مع المؤلف رحلة البحث عن الكنز أن تلتقى فى نهاية الرواية بالجزء الأفضل من نفسك

هى تجربة فريدة بالفعل.